

**رد الأعجاز على صدورها
وأثره في فقه بناء المعنى القرآني
(سورة البقرة أنموذجاً)**

بحث مقدم من
الدكتور

محمد كامل علي النادي

مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
فرع جامعة الأزهر بالبحيرة

رد الأعجاز على صدورها وأثره في فقه بناء المعنى القرآني (سورة البقرة أنموذجاً)

محمد كامل علي النادي

قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر
بإيتاي البارود، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: mkelnady@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يتناول البحث وجهًا خفيًا من وجوه بلاغة القرآن الكريم، وأسلوبًا رائعًا من أساليب بناء معانيه، وهو ردُّ أعجاز المعاني على صدورها وكيف تكون سبلاً هادية إلى فقه المعنى القرآني وإبراز خفي مناسباته.

وردُّ الأعجاز على الصدور -بمعناه الأوسع عند المفسرين والمحدثين ونقطة الشعرة الذي يتجاوز الجملة الواحدة إلى السورة القرآنية الكاملة- تكلم فيه السابقون من علمائنا -رضوان الله عليهم- كالإمام البقاعي والإمام السيوطي، فتكلموا في ردِّ عجز السورة على صدرها فهو مطروق عندهم، ولكن غير المطروق الذي يكشفه البحث ويبرز دوره في فقه المعنى القرآني وإظهار خفي مناسباته هو ردُّ أعجاز معاهد معاني السورة ومعانيها الجزئية على صدورها، وكيف أنها علامات هاديات وسبلاً موصلات إلى استنباط مقاصد السور وأغراضها الكبرى.

الكلمات المفتاحية: بلاغة - البديع - العجز - الصدر - التناصب - الإعجاز البلاغي.

The Effect of Epanalepsis on Meaning Construction in the Holy Quran (Surat Al-Baqarah as a model)

Muhammad Kamel Ali El-Nady

Rhetoric and Criticism Department at the Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University Branch, Itay Al-Baroud, Arab Republic of Egypt.

E-mail: mkelnady@azhar.edu.eg

Abstract: The research deals with a hidden aspect of the Qur'anic rhetoric and a clear method of demonstrating its senses/meanings, namely "Epanalepsis", and how they become a means that guides to the Fiqh of the Qur'anic meaning and highlighting its cryptic harmony verses.

This term in its wide-ranging sense among the exegetes [*The Mufasroon*] and the people of Hadith, and the Poetry critics, that goes beyond the limits of one sentence to the whole Qur'anic surah was discussed by the earlier scholars [*may Allah be pleased with them*], such as Imam al-Buqai and Imam al-Suyuti and others. They discussed this topic, namely "Epanalepsis" [*Rddu Ajzi al-Surah Alaa Sadriha*] in general because it was familiar to them. However, the deep point that the research highlights is the consequence of Epanalepsis in understanding the Qur'anic meaning and disclosing its obscure harmony phrases. This process means linking the end of the Surah passages [*'ajaaz m'aāqid*] and its partial meanings with its beginning passages [*Sudūr*]. Furthermore, the research shows how they are the guidance signs and paths leading to the deduction of the major purposes of the Surah.

Key words: Rhetoric - Badia - Impotence - Chest - Proportionality - Rhetorical Miracles.

المقدمة

(ربِّ يسر وأعن)

الحمد لله في البدء وفي الختام، يسرّ بفضلته الكشف عن سرٍّ من أسرار كتابه وأماط اللثام، وأعان بمثّته على إيضاحه وتبيينه قدر استطاعة عبده غير مدّع الكمال أو التمام، فله الحمد على الإلهام والتيسير والعون والاستخدام، وأدعوه -سبحانه- أن يستعملنا لخدمة دينه وكتابه ولا يستبدلنا ما مادام في النفس نفس وفي الأجل بقية وفي العقل إمام وإلهام، والصلاة على حبيبنا وشفيعنا ومعلمنا وقدوتنا والسلام.

أما بعد؛

فكلام الحق سبحانه غرض لا تنقضي عجائبه، ولا تنفَى أسرارهِ وغرائبهِ، فعلى الرغم من تطاول القرون ومرور الأعوام والسنون فإنه مازال يوجد بأسرارهِ وعجائبهِ، ويبوح بخفائهِ ودرره محاسنه.

وهذا البحث يرصد وجهًا خفيًا من تلك الوجوه المستكنة، ويميط اللثام عن سرٍّ كامنٍ من هذه الأسرار المستترة، ويبرز لونًا رائعًا من ألوان تناسبه وتلاؤمه، ويكشف نمطًا بديعًا من أنماط انتلافه وتجانسه، وهو (ردُّ الأعجاز على الصدور)، ولست أقصد به هنا ذلك اللون البديعي اللفظي المحصور في ضيق الجملة من النثر أو البيت من الشعر؛ ولكن أقصد به ذاك الأسلوب الحر الطليق الذي يلف السور والمعاني الطوال يقارب بين أطرافها، ويلائم حدودها وأعطافها، ويلمح إلى مقاصدها وأغراضها.

وإذا كان في دراسات السابقين من سادتنا وعلمائنا -رضوان الله عليهم- حديث عن ردِّ أعجاز السور على صدورها كالإمام البقاعي الذي

كانت له عناية شديدة به^(١)، والإمام السيوطي الذي خصه بالتأليف^(٢)، وحديثاً كشيخنا العلامة أ. د. محمود توفيق^(٣)، وشيخنا العلامة أ. د. إبراهيم الهدهد^(٤)، الذين نبَّها على أهمية هذا اللون كأحد أهم روافد استنباط مقاصد السور وأغراضها العظمى، فإن هذا البحث يضيف إلى ذلك الجهد المبارك بُعداً آخر، ويبرز لهذا الفن دوراً أهم وأعظم، فإنه يثبت أن ردَّ الأعجاز على الصدور في القرآن الكريم لا يقتصر وجوده على ردَّ آخر السورة على صدرها؛ ولكنه ركن أصيل من أركان بناء كثير من المعاني الجزئية للسورة ومعاقدها، ولا تنحصر أهميته في كونه رافداً من روافد استنباط المقصود الأعظم معانيها، ولا يُلحح إليه في البدء والختام؛ ولكنه فوق ذلك من أهم الوسائل الكاشفة عما خفي تناسبه وغمض تلاؤمه.

ومن أمانة العلم أن أقول: إن فكرة البحث كانت جوهرة مدفونة في تراث سادتنا وعلمائنا، ولكنها كانت تحتاج فقط لمن ينقب عنها ليستخرجها، فهي قديماً تومض في قول للإمام الرازي - رحمه الله - حيث يقول: "اعلم أنه ﷺ لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح

(١) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

(٢) في كتابه مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

(٣) في كتابه: الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن أ. د. محمود توفيق سعد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، والعزف على أنوار الذكر، طبعة دار الكتب الجامعية الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ.

(٤) في كتابه علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، الطبعة الأولى لمكتبة وهبة عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

قبائحهم في أديانهم وأعمالهم **وختم هذا الفصل بما بدأ به** وهو قوله: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي إلى قوله: ولا هم ينصرون)^(١)، وها هي حديثاً تبرق في قول لشيخنا العلامة أ.د. محمد أبو موسى -رضي الله عنه- حيث يقول في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ [سورة غافر: ٥٣] قال الشيخ: "والآية التي معنا هي آخر الكلام في قصة موسى وتوابعها المذكورة في السورة، وهي ردّ ظاهر إلى صدر الحديث عن هذه القصة، وكلمة ﴿وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ المذكورة في أول القصة هي الهدى المذكور في آخرها، والقصة صدرها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة غافر: ٢٣] وعجزها ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ وتأمل تصاقب المباني والمعاني وبهذا التلاقي بين طرفيها طويت صفحاتها من السورة^(٢)، ولكن كلامهما كعادة كلام العلماء لمحّ ورمز وإيماء، وتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج كما يقول الإمام عبد القاهر، فكان حظ البحث وصاحبه أن ينقب عن تلك الظاهرة في كتاب الله ﷻ ويتتبع مواقعها، ويعرض لها نموذجاً في سورة البقرة ليبين قيمتها في خدمة المعنى وبيانه.

وحين أقول: إن رد الأعجاز على الصدور يُعدُّ أحد ركائز بناء المعنى وفقهه في القرآن الكريم فإني لا أقصد رد عجز السورة على مطلعها فحسب، بل أقصد كذلك رد أعجاز المعاني الجزئية ومعاهد معاني السورة على مطالعها، فإني باستقصائي لتلك الظاهرة القرآنية وجدت أن هذه المعاني وتلك المعاهد عادة ما

(١) مفاتيح الغيب ٣٦/٤ للإمام فخر الدين الرازي، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى

١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) آل حم غافر وفصلت دراسة في أسرار البيان ص ١٩١، لشيخنا أ.د. محمد محمد

أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

تدور كذلك بين عجزٍ مردود على صدرٍ لفظاً ومعنى، فكما أن السورة القرآنية دائرة كبرى تختتم بما به بُدئت، فإن معاهد المعاني وأجزاء المعاهد من المعاني الجزئية دوائر صغرى تختتم بما به بدأت؛ ليصير غرض المعاهد والمعاني مكتنف بين طرفين صدر وعجز لو تقفأها محسنُ التأمل سليمُ التدبر لاستدلَّ بها على أغراضها التي توصلنا مجتمعة إلى مقصود السورة الأعظم بصورة أدق وأضبط؛ لأنها لبنات بنائه ونمنمات صورته وهيئته، وفوق ذلك لأعانه تحديد مواقع بدء المعاني الجزئية ونهايتها على فهم ما غمض من آيات خفيت ملاءمتها ودقَّت مناسبتها لسياقها حتى نُسبت -ظلمًا- للنسخ أو الاستطراد عند كثير من علمائنا -رضوان الله عليهم-، وهي من عين المحكم وصميم المتناسب المتلائم. على أني سأزيد هذا الأمر بياناً وتمثيلاً في المبحث الأول -بإذن الله.

لكن خلاصة ما أحب أن أنبه عليه هنا أن هذا البحث يثبت أن ردَّ أعجاز المعاني على صدورها في القرآن الكريم أحد أهم طرائق أو قل ركائز بناء معانيه، وأحد أعظم الوسائل المعينة على استنباط مقاصد السور، وأحد أجلِّ الروافد الهادية إلى فقه ما خفي تناسبه ودقَّ تلاؤمه.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يخرج في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، في المبحث الأول أصَلَّت للمصطلح وبيَّنت الفكرة مدلاً ومبرهناً، وفي المبحث الثاني حررت المقصود الأعظم لسورة البقرة، ثم تَفَقَّيت تلك الظاهرة القرآنية في السورة شارحاً وموضحاً، وفي المبحث الثالث بيَّنت دور رد الأعجاز على الصدور في فقه خفي مناسبات السورة وفي الخاتمة رصدت أهم نتائج البحث وتوصياته.

اللهم إن هذا فهمي وعلمي وتلك طاقتي واستطاعتي فإن كنت قد أحسنت فتقبل مني وأعني على خدمة دينك وكتابك، وإن كنت أسأت وأخطأت فعلمني وفهمني واستعملني ولا تستبدلني فلا حول ولا قوة لي إلا بك.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإسكندرية في ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م

المبحث الأول

تأصيل للمصطلح وبيان للفكرة

صدر كل شيء أوله، وعجزه آخره، (وردُّ الأعجاز على الصدور) فنَّ بديعي حصره سادتنا البلاغيون في المحسنات اللفظية وعرفوه بقولهم: "هو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها"^(١) يقصدون به رد لفظة في آخر البيت من الشعر أو الفقرة في النثر على أول البيت أو الفقرة، "ولكن المفسرين وشرح الحديث ونقده الشعر بسطوا من دائرته، فلم يقيدوه برّد كلمة على أختها في الصدر؛ بل أدخلوا في هذا رد معنى في آخر البيان على معنى في أوله، جعلوا منه رد آخر بيت في القصيدة على أول بيت، بل آخر صورة شعرية ذات أبيات على صورة هي فاتحة القصيدة، بل رد غرض على غرض"^(٢).

ورد الأعجاز على صدورها بهذا المعنى الرحيب الجامع هو ما أقصده في هذا البحث -كما قلت قبل-، فأنا لا أقصد المعنى الضيق المحصور في المحسنات اللفظية، بل أقصد ذاك الذي يلفُّ المعاني الطوال، ويحصرها بين معنيين أحدهما صدر الكلام وأوله، وثانيهما عجزه وآخره.

وكنيت في سعة من أمري أن أسميه كما سماه بعض الباحثين (رد المقاطع على المطالع) أو (رد آخر الكلام على أوله)؛ ولكنني آثرت المصطلح الأعرق والأشهر في كتب البلاغة ما دام المصطلح قادراً على حمل هذا المعنى، ومادام له أصل في كلام سادتنا وعلمائنا المفسرين ونقده الشعر،

(١) البديع لعبد الله بن المعتز ١٤٠ طبعة دار الجيل الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.

(٢) علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبوموسى، للعلامة الدكتور محمود توفيق سعد ص ١٣٣ طبعة مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩ م.

ومادام كذلك تعريف سادتنا البلاغيين يشملهم حين قالوا: "هو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها"^(١).

وهذا اللون البديعي بهذا المعنى الجامع يُعدُّ أحد طرائق أو قل ركائز بناء المعنى وفقهه في القرآن الكريم، فلا تكاد تجد سورة في كتاب الله - عز وجل - إلا وقد ختمت بما به بدئت، مردوداً عجزها على صدرها أو، وهذا أمر تكلم فيه المفسرون - رضوان الله عليهم - وبيّنه كالإمام البقاعي الذي كان له "احتفاء بالغ بهذا، فقد رصده في جميع سور القرآن، بل هو يرد آخر القرآن على أوله، ويمضي يطبق هذا على عدة سور في آخره يردّها على عدة سور في أوله"^(٢)، بل وأفرده بعضهم بالتأليف كالإمام السيوطي في كتابه (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

ورد عجز سور القرآن على صدورها من أعظم السبل الموصلات إلى فقه مقاصدها، ومن أهم الدلائل والروافد الهاديات إلى أغراضها؛ لأن السورة تبدأ بمطلع دال على مقصدها موحٍ بغرضها، ثم يتقنن القول فيما هو إلى المقصد بسبيل، ويتشعب إلى أغراض صغرى هي لبنات بناء المقصد الأسمى، ثم يعود المعنى إلى ما به بدأ؛ ليندگر السامع والقارئ بغرضه الأسمى ومقصده الأعظم، يقول الإمام البقاعي: "فليفتحوا طريق سورة من السور، وإن كانت في غاية الوجازة والقصر فإن كل سورة لها مقصدٌ واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه على أنقن وجهه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل، استدل عليه وهكذا في دليل الدليل، وهلم جزاً، فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتداءً، ثم انعطف الكلام

(١) البديع لابن المعتز ١٤٠.

(٢) علم البديع عن الشيخ محمد محمد أبوموسى، للعلامة الدكتور محمود توفيق سعد

إليه وعاد النظر عليه وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغرّ، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل^(١).

وبعبارة أخرى أقول: إن السور القرآنية - والطوال منها خاصة - تتكون من معاهد معانٍ هي أركان بناء المعنى العام للسورة أو مقصودها الأعظم، ثم إن تلك المعاهد تتكون هي الأخرى من معانٍ جزئية هي لبنات بناء المعقد، ويتدبري لكثير من معاهد معاني سور القرآن ومعانيها الجزئية وجدت أن هذه المعاهد وتلك المعاني كثيراً ما تقع محصورة بين عجز مردود على صدر متفقان لفظاً ومعنى، فيُختم كل معنى بما به بُدئ، وجدت هذا شائعاً في كلام الحق - سبحانه - حتى يكاد يكون ركيزة من ركائز بناء المعنى فيه، وكأنها علامات وضعت لبيان مفاصل المعاني، أو إشارات هاديات لوجه بناء المعنى على المعنى.

ولتتبع تلك العلامات واستقصائها فائدتان عظيمتان:

الأولى: يعين على تحديد مقاصد السور تحديداً أدق وأضبط، ويجعل للوصول إليها سناً لاجباً وطريقاً بيناً ظاهراً؛ لأن تحديد مقاصد المعاني الثانوية بما حوته صدورها وأعجازها من دلالات وإشارات هادٍ بلا ريب إلى تحديد المقصد الأسمى والغرض الأعم الأعلى؛ لأن مقاصد الأجزاء لبنات لمقصد الكل.

الثانية: يرشد تتبعها إلى فهم ما خفي تناسبه ودقّ تألفه وتلاؤمه، "فكم آية في كتاب الله تراها قد ضيقت حقها واستلّبت ماءها ورونقها فأخذ بها في

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١٤٩/١ طبعة مكتبة المعارف

بالياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

مأخذ مردودة وحُملت على محامل غير مقصودة^(١) كما يقول الإمام السكاكي؛ لأن المتدبر لسياقها والمتأمل في وجه مناسبتها قد غفل هذه الإشارات ولم ينتبه لتلك العلامات، فنجد آية قد جُعِلت مبتدأ لمعنى جديد وهي تمام الأول وكماله، وثانية حُكم بنسخها وهي من صميم المحكم، وأخرى وقعت بين كلام متصل فلما خفي انتسابها إليه ودقّ ائتلافها معه حُكم بأنها استطراد، أو قيل في تناسبها ما لا يخرج منه القارئ بمقنع، وما ذاك إلا كما قلت لغفلة عين المتدبر عن تلك العلامات الهاديات.

١. فمثال ما جُعِلت مبتدأ لمعنى جديد وهي تمام الأول وكماله:

قول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ أَبَدَّكَ إِبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَةٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤] فكثير من سادتنا المفسرين جعلوها ابتداء معنى جديد كالعلامة الفخر الرازي - رضوان الله عليه - حيث قال: "شرع سبحانه هاهنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضل جميع الطوائف والملل، فالمشركين كانوا معترفين بفضل متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمة وخادمي بيته"^(٢)، والآية من تمام الكلام السابق وبقيته، كما سألين هذا - بإذن الله - في موضعه من البحث.

(١) عبارة مأخوذة بتصرف من كلام للإمام السكاكي قاله في سياق حديثه عن أهمية علم البلاغة لمن تصدى لتفسير كتاب الله - ﷻ -، ينظر مفتاح العلوم ٤٢١ ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) مفاتيح الغيب ٣٦/٤.

٢. ومثال ما حكم بنسخها وهي من صميم المحكم:

قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٥] فكثير من المفسرين حكموا بأنها منسوخة بقوله سبحانه: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤] وسيبين عند الحديث عن هذه الآية في موضعها من البحث أنها واردة في السياق ذماً لمن أراد صرف المؤمنين عن قبلتهم والطعن في تحولهم من قبلة إلى قبلة، فليست من النسخ في شيء.

٣. ومثال ما وقعت بين كلام متصل وخفي انتسابها:

- الآيات الواردة في أحكام الأسرة في سورة البقرة (من نكاح وطلاق وعدة ونفقة ورضاع وغيرها) وهي مسبقة بنشرع القتال ومعقبة بالحث على القتال كذلك، وسيأتي في البحث بيان جهة اتصالها وتناسبها مع سياقها.
- وفي غير سورة البقرة الآيات الواردة في سورة التوبة في النهي عن ولاية الكافرين وهي قول الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢٣] قُلْ إِن كَانَتْ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٢٣-٢٤] والآيات التي بعدها التي تتحدث عن نصره الله لنبيه في غزوة حنين وغيرها من المواقع فيقول -سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ [٥] ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ

جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [سورة التوبة: ٢٥-٢٧].

فقد وقعت هذه الآيات بين كلام متصل، صدره ينهي عن السماح للمشركين بعمارة المسجد الحرام ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة التوبة: ١٧] وعجزه يأمرهم صراحة بمنع المشركين كافة من دخول المسجد الحرام هي قول الله ﷻ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٢٨].

ولقد تعددت آراء سادتنا المفسرين في وجه مناسبة هذه الآيات لآيات منع المشركين من عمارة المساجد السابقة، فقال الإمام الرازي مثلاً: "ونقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال: لما أمر المؤمنون بالهجرة قبل فتح مكة فمن لم يهاجر لم يقبل الله إيمانه حتى يجانب الآباء والأقارب إن كانوا كفاراً، قال المصنف ﷻ: هذا مشكل، لأن الصحيح أن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية على ما ذكروه؟ والأقرب عندي أن يكون محمولاً على ما ذكرته، وهو أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالتبري عن المشركين وبالغ في إجابته، قالوا كيف تمكن هذه المقاطعة التامة بين الرجل وبين أبيه وأمه وأخيه، فذكر الله تعالى: أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والإخوان واجب بسبب الكفر وهو قوله: إن استحبوا الكفر على الإيمان" (١).

وقال الإمام القرطبي: "ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحزب على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها

من بلاد العرب، خوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر..... لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من تسارع لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعلكم ولا أنفق عليكم شيئاً أبداً. ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أنشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك، فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم، فنزلت "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان". يقول: [إن اختاروا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة. "ومن يتولهم منكم بعد نزول الآية" فأولئك هم الظالمون". ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا: "قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم" (١)

ولكن أعود فأتساءل كما تتساءل الإمام الرازي: كيف يصح أن تكون الآيات نازلة في الذين تخلفوا عن الهجرة والصحيح أن السورة نزلت بعد الفتح؟! ويقول الشيخ الطاهر: "وهذه السورة هي آخر السور نزولاً عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح، في قول جابر بن زيد، فهي السورة الرابعة عشر بعد المئة في عداد نزول القرآن..... والجمهور على أنها نزلت دفعة واحدة" (٢).

والذي يزيل هذا الغموض، ويكشف المناسبة واضحة جلية في هذه الآيات هو الذي قلته من (رد عجز الكلام على صدره) الدال على وحدة

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩٤/٨، للإمام القرطبي، مراجعة وتعليق أ.د. محمد إبراهيم الحفناوي، د. محمود حامد عثمان، طبعة دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٢) التحرير والتنوير ٩٧/١٠ الناشر دار سحنون - تونس، الطباعة دار مصر للطباعة ١٩٩٧م.

السياق، الموحى بغرض المعنى ومقصده، فلتراجع الآيات في ظل هذا المعنى وتحت عباءته ليُرى التناسب جلياً واضحاً لا غموض فيه ولا التباس، فإن رد عجز المعنى على صدره لدليل على أن ما بينهما من تمام المعنى وليس خارجاً عنه ولا هو انتقال لمعنى جيد.

ولو تدبرنا هذا الموضوع مرة أخرى بهذا الفهم وتلك القناعة لرأينا التلاؤم والتناسب والائتلاف والتجانس في هذه الآيات جلياً واضحاً، لا يحتاج وعيه إلى تكلف في ربطه أو تعسف في بيانه، ذلك أن الله - عز وجل - أراد أن يمنع المشركين من دخول بيته والاقتراب من حرمة، فبدأ سبحانه ببيان أمر العمارة من الحقيق بها، الجدير بشرفها، ومن المتطفل عليها، المتجرئ على ما ليس له، فبين أنه لا يجوز ولا يليق أن تكون إلا لمن آمن به وليس لمن كفر وجاهر بكفره؛ ولكن لما كان التصريح بوجوب منع الكافرين من دخول مسجده قد يشق على بعض المؤمنين لأن بعض من سيمنعونهم من بقي على كفره من آبائهم وإخوانهم وعشيرتهم، وشركائهم في تجارتهم قال لهم سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٤﴾ [سورة التوبة: ٢٣-٢٤] ليعلموا أن لا ولاية إلا لله، ولا حب يسبق حب الله وحب رسوله وحب الجهاد في سبيله.

ولئلا يظنوا أنهم بعداوتهم لأهليهم وعشيرتهم وشركائهم وحلفائهم أنهم يفقدون المنعة والعزة والقوة التي بها يُنصرون، ذكَّرتهم أن لا عز إلا في طاعة الله، ولا منعة ولا قوة إلا في جواره، ولا نصر ولا ظفر إلا منه، فذكَّرتهم بيوم حنين إذ ظنوا أن لا غلبة لهم بعدما زاد عددهم وقويت شوكتهم، فاغتروا بقوتهم وأعجبتهم كثرتهم حتى قال قائلهم: (والله لن نغلب اليوم من قلة) فلم

تغن عنهم شيئاً وضاقَت عليهم الأرض بما رحبت حتى ولو مدبرين، ولولا فضل الله عليهم ومدده وجنوده التي لم يروها لما كتب لهم نصر ولا نجاة. فهذه الآيات التي بدت معترضة يعلمهم ربهم أن لا اعتماد ولا توكل إلا على الله، وأن آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وإن قويت وأموالهم وإن كثرت، لن تغني عنهم شيئاً إذا أرادهم الله بضر، أو أراد بهم رحمة.

وبعد أن يرسخ الحق - سبحانه - هذه القناعة في نفوسهم - رضوان الله عليهم - وبعد أن تنتشر بها قلوبهم وعقولهم يأتيهم الأمر القاطع الجازم بوجوب صدّ المشركين عن بيته وحرمة فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٢٨] فيعود المعنى لما به بدأ، فيُردّ عزه الكلام على صدره، في تناسب رائع، وتلاؤم جليّ ظاهر.

أرأينا كيف يكون رد الأعجاز على صدورهما ركيضةً من ركائز بناء المعنى في كتاب الله عز وجل؟! وكيف يكون سبيلاً موصلاً إلى فقه خفيّ تناسب آياته وتلاؤم معانيه؟!

وهكذا الأمر في أكثر معاني القرآن سوراً كانت أو معاهد معانٍ أو معانٍ جزئية، ترى السورة مهما طالّت معانيها وكثرت آياتها تعود لما كان به البدء، فيكون ذلك من أعظم روافد استنباط مقصودها، ومن أجلّ السبل الهاديات إليه، ثم ترى المعاني الجزئية ومعاهد المعاني - والأمر فيها أعجب وأغرب - مهما طالّت وتشعب القول فيها؛ تمثيلاً أو استطراداً تُردُّ إلى صدور معانيها رداً بيناً واضحاً جليّاً؛ لتهدي المتأمل إلى وجه بناء المعنى، وتعين المتدبر على فقه وجه تناسبها وتلاؤمها، وكذا ترشده إلى فهم رتبة المعقد ودوره في أداء المعنى الكلي للسورة القرآنية.

ولما كان كلامي عن كون (رد الأعجاز على صدورها في كتاب الله) ركيزة من ركائز بناء المعنى فيه حكم يبغي الدليل، ودعوى تطلب البينة، آثرت أن أثبت ذلك تطبيقاً على أطول سور القرآن وفسطاطه وسنامه وهي سورة البقرة، وفيما يلي بيان لذلك وتوضيح.

المبحث الثاني

رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة

المطلب الأول

تحرير مقصود السورة

تعددت آراء علمائنا في مقصد سورة البقرة^(١). حسب تعدد جهات تناسل المعاني في السورة عندهم، وتنوع وجوه تناسب آياتها ومعانيها في نظرهم؛ ويرجع هذا التعدد في جهات النظر إلى أمرين أولهما: المتدبرون أنفسهم-رضوان الله عليهم- من حيث تباينهم في حسن التدبر وسلامة التأمل، وثانيهما: يعود إلى المتدبر وهو القرآن، فإن من شأن البيان العليّ -كما يقول شيخنا الدكتور محمود توفيق-: "لا يمنحك وجهًا واحدًا من المعاني أو العطاء؛ بل هو يكنز لك في بيانه ضرورًا من معاني الهدى، ويدع لك الاجتهاد في استخراج ما يتوافق مع قدرك؛ تحريضًا على متابعة الاجتهاد في الاستنباط، وفي الوقت نفسه يدفع عنك غائلة الملل إذا ما أنت أخذت في كل محاولة اجتهدية ما أخذته في السابقة عليها، ولكنك إذا ما لقيت في كل مرة من فيض العطاء غير ما لقيت في التي قبلها أقبلت إقبال المتطلع التائق المؤمل، وفيه أن درجات العطاء تتعدد وتفاوت بتعدد المجاهدين في التدبر وتفاوت بتفاوت أقدارهم"^(٢).

(١) بدأت بتحرير مقصود السورة؛ لأنه سيكون متكأي في إثبات صحة تقسمي لها إلى معاهد ومعاني جزئية، فكما يقول الإمام البقاعي: "من حقق المقصود منها عرف تناسب آياتها وقصصها وجميع أجزائها".

(٢) الإمام البقاعي ومنهجه في تأويل بلاغة القرآن ص ١٨٩.

فيرى الإمام أبو جعفر أحمد بين الزبير الغرناطي أن مقصود السورة: "بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذًا وتركًا، وبيان شرف من أخذ به، وسوء حال من تكذب عنه"^(١).

ويرى الإمام البقاعي أن مقصودها: "إقامة الدليل على أن الكتاب هدى لئلتبع في كل حال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه: الإيمان بالآخرة، ومداره: الإيمان بالبعث، الذي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب"^(٢).

ويرى بعض المحدثين كصاحب الظلال، وواضعي التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أن مقصودها بيان منهج خلافة الله - عز وجل - في الأرض مقوماتها وأهلها^(٣).

ويرى الشيخ الطاهر ابن عاشور أن: "معظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم"^(٤).

وبعد تدبري لتلك السورة، وتأملي لأعطافها ومعاقدها معانيها، واحتكامي لظاهرة رد الأعجاز على الصدور في فقه معانيها واستنباط مقاصدها - كما سأبين ذلك بعد - اطمأنتت إلى أن مقصود السورة هو: هداية الناس إلى

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٩٤ لابن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي ٩/٢.

(٣) يراجع في ذلك التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ٢٧/١ إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم، طبعة جامعة الشارقة الطبعة الأولى ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، والظلال ٢٨/١ طبعة دار الشروق الطبعة الثالثة عشرة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٣/١.

صراط الله المستقيم من الإيمان به وتقواه بقبول تكليفاته والامتنال لها أمراً ونهياً وهو قريب مما قاله الإمام الغرناطي وخارج من رحمه، ويبرهن على صحة هذا المقصد ويرجحه دلائل أهمها:

الدليل الأول: مطلع السورة وصدرها:

فقد دلّ المطلع على هذا المقصد وأشار إليه حين اشتمل على أركان ذلك الإيمان وأهم مقومات تلك التقوى.

- أما اشتماله على أركان الإيمان فهي الجملة في قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والغيب هنا كل ما غاب عن إدراك حواس البشر ووجب الإيمان به لإخبار النبي -ﷺ- عنه، فالغيب هنا يشمل الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره كما جاء في الحديث، وهو ما أكدّه سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤] فالآية أشارت إلى الإيمان بالله؛ لأنه هو المنزل، وعلى الإيمان بالكتب؛ لأنها هي المنزل، وعلى الإيمان بالرسول؛ لأنهم المنزل عليهم، وعلى الإيمان بالملائكة؛ لأنهم الواسطة والوسيلة، ثم صرحت بالإيمان باليوم الآخر ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.
- وأما اشتمال المطلع على أهم مقومات التقوى التي هي "امتنال الأوامر واجتناب المنهيات" (١) أنها ذكرت أهم التكليفات التي تجب عليهم امتثالاً لأمره -تعالى- وبها تتحقق التقوى في نفوسهم، وخصّ منها التكليفات التي يستطيعها كل مؤمن، فلا تمنعه منها نفقة لا يملكها، أو استطاعة لا يطيقها، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فلا تجد هنا حج أو صيام أو زكاة وإنما تجد إقامة الصلاة وهي لا تسقط بحال عن أي مؤمن، والإنفاق مهما قلّ أو تعددت صورته ليشمل التبسم

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢

وغيره ليستطيعه كل مؤمن، فلم يقل سبحانه: (ويؤتون الزكاة) وإنما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ لأن الزكاة تجب على الأغنياء فقط فلو ذكرت هنا لكانت شرطاً في بلوغ مرتبة التقوى ولكانت التقوى مقصورة على الأغنياء دون الفقراء.

الدليل الثاني: عجز السورة:

ومن أوضح الأدلة على صحة هذا المقصد كذلك خاتمة السورة، حيث ردت على صدرها حاملة المعنى نفسه، تمدح بالصفتين نفسيهما الإيمان والتقوى.

أما الإيمان ففي قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ... الآية﴾، وأما التقوى ففي امتثالهم ما أمر وتركهم ما نهى، وقبولهم هديه بالسمع والطاعة في قوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، وتبرئهم من جحود نعمته أو عصيان أمره ونهيه، وقبولهم لجميع شرعه لهم، ورجاءهم العفو عن زللهم وترك المؤاخذه على الخطأ والنسيان ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

ثم ها هم قد وعوا الدرس وبلغتهم الموعظة من عاقبة السابقين الذين تركوا طريق الهدى وجحدوا نعمة ربهم، وعصوا رسله؛ فنجدهم يدعون ربهم ألا يجعل عاقبتهم كعاقبة من ضلَّ ممن سبقهم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

الدليل الثالث: اسم السورة:

لما كان غرض السورة هداية الناس إلى تقوى الله -عز وجل- والإيمان به من خلال تبشيع فعل من رفض هداه وجحد نعمته، سُميت السورة بسورة البقرة؛ إشارة إلى قصة البقرة فيها وما تحمله من عبرة وعظة، فربنا يقول لنا: لا

تكونوا عصاة معاندين في قبول هداي وفي تحمّل تكليفاتكم وشرائعكم كبنّي إسرائيل الذين بلغ بهم كفرهم وعصيانهم أن يجادلوا نبيهم حتى في ذبح بقرة. ويرجح الاعتقاد أن هذا هو الغرض من تسمية السورة بالبقرة أنه لو كان غرض القصة بيان قدرة الله -عزّ وجل- على البعث وإحياء الموتى لكان مطلع ذكر القصة في السورة هو بداية أحداثها من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٢]؛ ولكن الله -عز وجل- بدأها من نهاية أحداثها؛ التي هي موضع العظة أقصد مجادلتهم لنبيهم ورفضهم لتكليف الله لهم، لأن هذا هو الأهم في روايتها؛ ليأخذ المسلمون منه العظة ويعتبروا فلا يجادلوا نبيهم في تكليف، ولا يماطلوا رسولهم في أمر أو شرع.

الدليل الرابع: المعجم اللغوي لألفاظ السورة:

يقول شيخنا الدكتور محمود توفيق: "ومن الجدير بالملاحظة أنّ كلمات الأسرة اللغوية إذا ما تكاثرت تواردها في سورة ما كان في هذا آية على هيمنة ما تلتقي عليه تلك الكلمات دلاليًا على موضوع السورة، ذلك أنّ حشد مفردات هذه الأسرة اللغوية وتجييشها في سورة واحدة لن يكون عملاً عقيماً أو عابثاً، فهو تنزيل من عزيز حكيم عليم حميد. إذا نظرنا في سورة (البقرة) ألفينا أنّ في معجمها اللغوي كلمات قد تواردت على نحو لم يكن في غيرها، وهي مفردات تتناسل من رحم مقصودها الأعظم نجد أنّ مفردات (الإيمان) جاءت أربعاً وسبعين مرة، ومفردات معنى (التقوى) جاءت ستاً وثلاثين مرة، ومفردات (الهدى) جاءت ثلاثين مرة"^(١) وشيوع هذه المفردات خاصة وكثرة ورودها في سورة البقرة دون غيرها يرجح ما ذهب إليه من أن غرض السورة ومقصدها

(١) العزف على أنوار الذكر ص ٩٨.

الأعظم: هداية الناس إلى صراط الله المستقيم من الإيمان به وتقواه بقبول تكليفاته والامتثال لها أمراً ونهياً.

الدليل الخامس: تدبر آيات السورة ومعاقدها ومعانيها الجزئية:

ذلك أن السورة مكونة من معقدين من المعاني، استقل كل واحدٍ منهما بدورٍ في أداء ذلك المقصود، من خلال معانٍ جزئية هي لبنات بنائه التي كوَّنت صورته وحددت ملامحه.

فالمعقد الأول: يمتد من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] وغرضه "دعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله عز وجل واتباع هدايته، وتهئية نفوس المؤمنين منهم لقبول هديه واتباع تكليفاته وأوامره التي سيشرعها لهم في معقد السورة الثاني بتبشيع صورة من فرط في اتباع هدايته سبحانه من بني إسرائيل، والتحذير من غدرهم ومحاولاتهم الطعن في الإسلام وحرصهم على صرف أتباعه عن دينهم.

والمعقد الثاني: يمتد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] إلى نهاية السورة عند قوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥].

وغرض هذا المعقد بيان ما شرعه الله -عز وجل- لعباده من عبادات ومعاملات تناسب هذا المجتمع الناشئ في المدينة؛ لأن سورة البقرة كما نعلم هي أول ما نزل في المدينة فيناسبها أن تكون تأسيساً لمجتمعهم وإقامة لدولتهم، فشرع لهم الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد، وبين لهم أحكام القصاص والنكاح والطلاق والرضاع والنفقة والإنفاق في سبيله وترك الربا وأحكام الدين.

فبعدما هيأهم في المعقد الأول بتبشيع صورة من ضلّ وجحد وكفر، بيّن سوء عاقبة من غير وبدل، أخذ في بيان ما شرعه لهم وما فرضه عليهم تفصيلاً؛ فيكون ذلك أدعى لامتنال أمره وأخذ ما شرعه لهم بعزم وقوة؛ لذا نرى من عجيب لطفه سبحانه بعباده وعظيم هديه لهم في هذا المعقد أنه كلما فرض عليهم شيئاً قد يشقّ على نفوسهم أو يخشى أن تقصر عنه همهم، يعود فيذكرهم بتقصير من سبقهم وتقریطهم؛ لئلا يركنوا كما ركنوا، ولئلا يقابلوا شرعه بما قابله به المغضوب عليهم من بني إسرائيل؛ فيشحن بذلك همهم، ويقوي عزمهم.

- فعند فرض الصيام يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١٨٣]
- وعند دعوتهم للثبات على الإسلام كافة وحذر الزيغ أو الزلل قال: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُم مِّنْ ءَايَةٍ يَّبَيِّنُهَا وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١١]
- وعند حثهم على الجهاد يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِمِلَّا مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِّن دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]

الدليل السادس: السياق التنزيلي:

سبق أن أشرت إلى السياق التنزيلي للسورة وأنها أول ما نزل في المدينة بعد الهجرة فيناسبها أن تكون تأسيساً لمجتمعهم وإقامة لدولتهم، وليس شيء -والحال هذه- أهم من أن يدعوهم للثبات على الهدى وأن يرسّخ فيهم أسس الإيمان والتقوى، وأن يحذرهم الضلال كما ضل كجيرانهم من اليهود ممن يساكنونهم ويجاورونهم، وأن تُكشف لهم حقيقتهم وما يحملونه لهم من

حقد وحسد وضغينة؛ ليقبل المسلمون على التمسك بشريعتهم وإيمانهم غير آبهين بمن خالفهم أو طعن في دينهم أو حاول ردّهم عن إيمانهم، لذا كان السياق التنزيلي للسورة متوافق مع ذلك المقصد ومتناسب معه.

الدليل السابع: السياق الترتيلي:

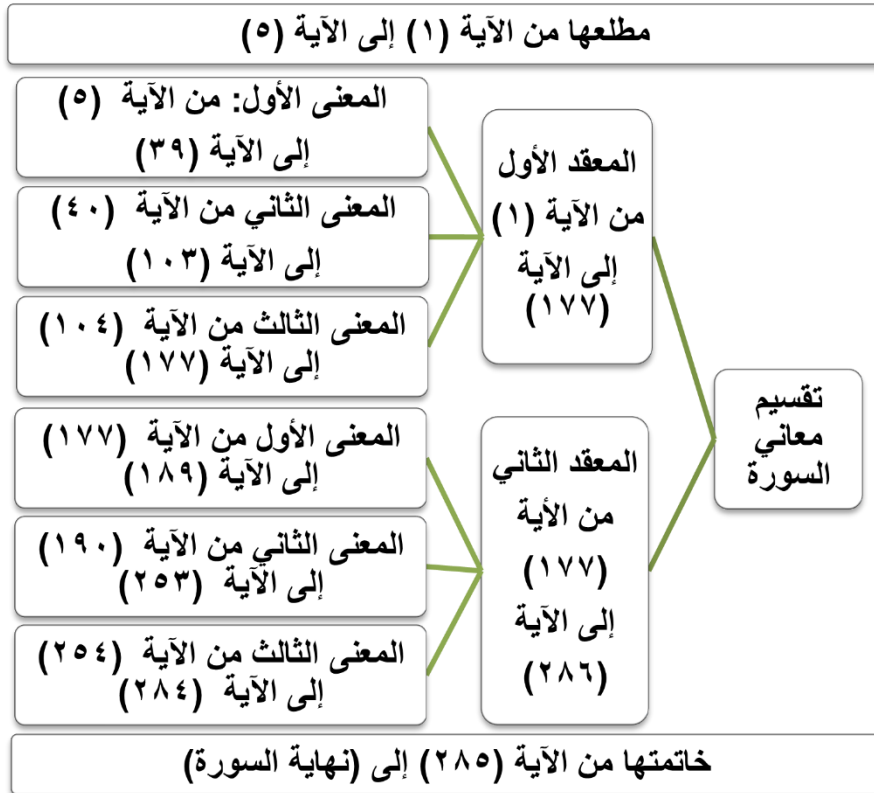
وأقصد به ترتيب السورة وموضعها في المصحف المرتّل ومناسبة مقصدها لهذا الترتيب، ذلك أن سورة البقرة أول سورة وردت في كتاب الله - ﷺ - بعد فاتحة الكتاب، وكونها أول ما يرد في كتاب الله يناسبها أن تكون بانيةً لمعتقد كل مسلم، حاويةً لأهم تكاليفات هذا الدين وأركانه، داعيةً للتمسك بهدى الله - ﷻ -، والثبات على الإيمان به وتقواه؛ لذا فقد جمعت السورة أركان الإيمان التي هي أساس معتقده وأركان الإسلام التي هي أساس عبادته، فضلاً عن جمعها لأهم تكاليفات هذا الدين من أحكام الجهاد والقصاص والنكاح والطلاق والنفقة والرضاع وكفالة اليتامى والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك مما أورته السورة مما يحقق التقوى في نفوس المؤمنين، والتقوى كما عرفها علماؤنا "امتثال الأوامر واجتناب المنهيات" (١).

وإلى غير ذلك من الأدلة التي ترجّح المقصد الذي ذهب إليه ويضيق المقام عن ذكرها، وفيما ذكر غناء عن ذكر غيره في سياق هذا البحث، لئلا يصرفنا الأخذ في هذا عما أردنا بيانه ورصده وتتبعه من بيان أهمية رد الأعجاز على صدورها في بناء معاني القرآن ووفقه مقاصده وأغراضه.

المطلب الثاني

رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة

ما سبق كان بياناً لمقصد السورة؛ لنبني عليه كلامنا الأهم في رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة كمثال لطريق مهم من طرائق بناء المعنى في القرآن الكريم، ونبدأ الآن في بيان ما أردت فأقول: بناءً على هذا المقصد الذي رجّحته بأدلته فإن سورة البقرة تتكون من أركانٍ تتعاون وتتضافر في إيصال هذا المقصد، ذلك أنها تتكون من: مطلع ومعقدين من المعاني وخاتمة، وينقسم كل معقد إلى ثلاثة معانٍ جزئية على ما يوضحه الشكل التالي:



أولاً: رد عجز السورة على مطالعها:

صدر السورة ومطلعها قول الله عز وجل: ﴿الْم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَاْخِرَةٌ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [سورة البقرة: ١-٥]

وعجزها وخاتمتها قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا النَّبِيَّ نُوحًا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ۖ وَكُتِبَ لَهُ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا فُتْرَ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ ٢٨٦ ۝ لَا يَكْلُفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ۚ كَمَا حَمَلْتَهُ ۚ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۚ إِنَّكَ مُوَلِّدُنَا فَأَنْصِرْنَا ۚ عَلَى ٱلْفُجُورِ ٱلْكَافِرِينَ ۝﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥-٢٨٦]

لا تخطئ عين القارئ فضلاً عن المتدبر المتأمل المناسبة بين صدر السورة وعجزها، فقد افتتحت بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب وختمت بذلك مفصلة المراد بالغيب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكذلك افتتاحها بالثناء على المتقين الذين يتبعون شرع الله عز وجل وتكليفاته فيقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم، وختمها باعتذارهم عن تقصيرهم في اتباع أوامره مبينين أن ما يقع منهم من تقصير -إن حدث- فليس جحوداً وكفراناً كالسابقين من المغضوب عليهم من أهل الكتاب؛ وإنما نسياناً أو خطأ، راجين عفو - سبحانه - وغفرانه.

وعلى الرغم أن رد أعجاز السور القرآنية على صدورهما أمر يحتاج لدراسة مفردة تظهر كوامنه وتكشف أسرارهِ وتبين أثره في الكشف عن مقاصد السورة؛ إلا إنني لن أقف معه كثيراً هنا لأنه مطروق قبلاً؛ ولكنني سأتوقف على

إظهار الأهم والأعجب - غير المطروق فيما أعلم - وهو رد أعجاز معاهد معاني السورة ومعانيها الجزئية على صدورها.

ثانياً: رد أعجاز معاهد السورة ومعانيها الجزئية على صدورها:

قلت: إن سورة البقرة مكونة من معقدين من المعاني، يستقل كل معقدٍ منهما بدورٍ في تحقيق مقصودها الأسمى، ثم إن لكلٍ من هذين المعقدين معانٍ جزئية هي لبنات بناء المعقد تبين مقصوده وتوضح غرضه، ومن إعجاز النظم الترتيبي في سورة البقرة أن كل معانيها كلية كانت أو جزئية مؤسسة على نظم بديع من رد أعجاز المعاني على صدورها، سواء في ذلك معاقدها العامة أو معانيها الجزئية لا يشذ منها معنى من المعاني، وإن كان الأمر في بعضها أشد ظهوراً وبياناً من البعض على ما يلي بيانه:

المعقد الأول ومعانيه الجزئية

من الآية (١) إلى الآية (١٧٧)

يبدأ هذا المعقد من أول السورة إلى ختام قول الله -عز وجل- ﴿لَيْسَ إِلَهِ

أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] التي وردت واسطة عقد بين المعقد الأول والمعقد الثاني كما سيأتي بيانه، فبها ختم المعقد الأول ومنها بدأ المعقد الثاني.

غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة:

قلت: إن السورة معقدان، معقد يبني نفوس المؤمنين ويمهدها لقبول تكليفاته - سبحانه - وأوامره، وآخر يبين ما كلفهم به وما نهاهم عنه، وهذا المعقد الأول منهما المهيئ لنفوسهم لغرضه "دعوة الناس كافة إلى الإيمان بالله - عز وجل - واتباع هدايته، وتهيئة نفوس المؤمنين منهم لتقواه بقبول هديه واتباع تكليفاته وأوامره التي سيشرعها لهم في معقد السورة الثاني".

رد عجز المعقد على صدره:

صدره قول الله عز وجل في صدر السورة: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ

فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَأْخُذُونَ بِالَّذِينَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٣﴾ [سورة البقرة: ١-٥]

وعجزه قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ الْإِلَهَ أَنْ تُؤَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤَفَّقِينَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي
الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [سورة
البقرة: ١٧٧]

فلننظر إلى التطابق التام بين صدر الكلام وعجزه:

- فإذا كان قد بُدئ بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب فقد ختم بذلك
مفصلاً معنى الإيمان بالغيب فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.
- وإذا كان قد بُدئ بذكر إنفاقهم مما رزقهم الله فقد فصل لهم في
عجزه مصارفها فقال: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾.
- وإذا كان قد ذكر صلاتهم هنالك فقد أعادها هنا فقال: ﴿وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾.

ومن عجيب ذلك المعقد أن التناسب بين عجزه وصدوره لا يقتصر
على آية واحدة؛ بل إن هناك جملة من الآيات التي ذكرت في صدر المعقد،
في المعنى الأول منه ثم أعيدت بالفاظها ومعانيها في نهايته لتكون أعجازاً
لصدور معانيها هنالك، فتكون بذلك علامات هاديات إلى بداية الكلام
ونهايته، وسبلاً موصّلات إلى وجه تناسب الكلام وتلاؤمه وانتلافه، وقد
جمعت فيما يلي أعجاز تلك المعاني في آخر المعقد وردتها إلى صدورهما

من آيات مفتتحة على ما يلي بيانه:

- بدأ بالكلام في صدر السورة عن الكتاب الذي جاء هدى فأمن به المتقون وكفر به المشركون والضالون من أهل الكتاب، وختم به هنا، فقال -سبحانه- في صدر المعقد: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ [سورة البقرة: ٢]، وقال في العجز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٦].
- تكلم في صدر المعقد عن الضالين من أهل الكتاب الذين اشتروا الضلالة بالهدى وختم بهم، فقال في الصدر: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٦] وقال في العجز: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٥].
- تحدّث في الصدر عن عنادهم، وتمسكهم بضلالهم وإصرارهم عن اتباع هدى الله -ﷻ- وختم به، فقال في الصدر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١١-١٣].
- وقال في العجز: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٠].
- وصفهم هناك بفاقدي الحواس وختم بذلك فقال في صدر المعقد: ﴿صُمُّ بُكْرٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١٨] وقال في عجزه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ يَمًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْرٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧١].

• دعا الناس في صدر المعقد لعبادته لأنه خالقهم ورازقهم ومدير أمورهم فهو الحقيق بالعبادة وختم بذلك، فقال في الصدر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٦١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦٢﴾ [سورة البقرة: ٢١-٢٢] وقال في العجز: ﴿وَالْهَيْكُلُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاحِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [سورة البقرة: ١٦٣-١٦٤].

• نهاهم في الصدر عن اتخاذ الأنداد من دونه فقال في الصدر: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦٢﴾ [سورة البقرة: ٢٢]، وختم بذكر عاقبة من فعل ذلك، فقال في العجز: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

• حذرهم هناك من الشيطان عدوهم الأكبر الذي أغوى أباهم وأخرجه من الجنة، فقال في الصدر: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٣٦﴾ [سورة البقرة: ٣٦]، وختم بتحذيرهم من اتباع خطواته، فقال في العجز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٣٧﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾ [سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩].

وهكذا نرى صدر هذا المعقد من المعنى يتعانق مع عجزه في تناسب

تام وتآلف كامل، يهتدي به المتأمل في كلام الله - عز وجل - إلى وجه اتصال المعاني وسبل بناء بعضها على بعض.

وقد قلت: إن هذا المعقد ينقسم إلى معاني جزئية ثلاث، هي لبنات بنائه، وأجزاء معناه، وفيما يلي عرضٌ لتلك المعاني، وبيانٌ لدورها في بناء غرض المعقد، وإبرازٌ لأثر رد الأعجاز على الصدور في بيان خفيّ تناسب آياتها.

المعنى الأول:

من الآية (٥) إلى الآية (٣٩)

وغرضه: دعوة الناس عامة إلى اتباع هدى الله - عَزَّوَجَلَّ - وبشارة من اهتدى منهم ونذارة من ضل وكفر.

وقد بدأ هذا المعنى ببيان ثواب من اتبع هدى الله عز وجل، وعقاب من ترك هداه وكفر، **وختم بذلك**، فردَّ عجزه على صدره رداً بيناً واضحاً:

فصدره قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٥-٧].

وعجزه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة البقرة: ٣٨-٣٩].

فما بين الصدر والعجز كلاماً واحداً أفرغ إفراغاً واحداً جيء به لغرض واحد، وقد جعل الصدر والعجز دليلاً على أول المعنى وآخره، فإن خفي وجه المناسبة بين بعض آياتها فليس لأن الكلام قد انتقل إلى معنى آخر، أو استأنف غرضاً جديداً؛ ولكن لأن إدراك بعض التناسب يحتاج إلى فضل تأمل ومزيد تدبر، وسوف أبين في المبحث الثالث - بإذن الله - دور رد

الاعجاز على الصدور في إبراز ما خفي تناسبه من تلك المعاني في السورة كلها.

المعنى الثاني:

من الآية (٤٠) إلى الآية (١٠٣)

وغرضه: عرض نموذج لمن هداهم الله -ﷻ- إلى صراطه المستقيم فأبوا إلا الضلال والجحود والكفران، وهم الكافرون من بني إسرائيل، فعرضت الآيات ما يبشّع فعلهم في أعين المؤمنين، ويحقر صنيعهم؛ ليهيئ نفوس المؤمنين بذلك لقبول هداه واتباع تكليفاته؛ رغبا ورهبا.

وقد بدأ هذا المعنى بما ختم به فبدأ بدعوة بني إسرائيل لتقوى الله

ﷻ والإيمان به، وختم بما ينعي عليهم ترك الإيمان والتقوى كذلك:

فصدره قول الله ﷻ: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۚ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيْمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ۚ ﴿٤١﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٠-٤١].
وعجزه قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [سورة البقرة: ١٠٣]

وكانهم أمر هدايتهم ونجاتهم كان محصوراً بين إيمان وتقوى الله -ﷻ- باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وهو عين مقصود السورة وغرضها الأسمى الذي سبق الكلام عنه؛ لذا قلت إن عرض هذا النموذج ممن ضل من السابقين بعد هداية الله لهم ما جاء إلا تنفيراً للمؤمنين من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه من غضب الجبار -سبحانه- عليهم وانتقامه منهم، وفيه تهيئة لنفوس المتقين لقبول شرعه واتباع هداه.

المعنى الثالث:

من الآية (١٠٤) إلى الآية (١٧٧)

وغرضه: تحذير المؤمنين من حقد أهل الكتاب والمشركين عليهم، وحسدهم لهم، وحرصهم على إضلالهم، وتمزيبهم لو ردوهم من بعد إيمانهم كفاراً، وتبيين للمسلمين أن ما حدث من أهل الكتاب عند تحويل القبلة من طعن في دينهم وتشكيك في نبيهم لهو أعظم دليل على هذا الحقد وذلك الحسد؛ لاحتباطوا لغدرهم وخسرتهم، وليسيروا في طريقهم ممتثلين لأوامره - سبحانه - غير آبهين بمن حاول صرفهم عن دينهم، ولا عابئين بمن طعن أو شكك في رسولهم أو كتابهم أو قبلتهم، فليست العبرة بجهة القبلة نحو المشرق أو المغرب وإنما العبرة بالاهتداء بهدى رب القبلة والإيمان به، يقول الشيخ الطاهر: "فهذا إقبال على خطاب المؤمنين بمناسبة ذكر أحوال أهل الكتاب وحسدهم المؤمنين على اتباع الإسلام مراد منه تلقين المسلمين الحجة على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا يصلون إليها ففي ذلك تعريض بأهل الكتاب. فأهل الكتاب رأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البر باستقبالهم قبلتهم فلما تحولوا عنها لمزوهم بأنهم أضاعوا أمراً من أمور البر، يقول عدّ عن هذا وأعرضوا عن تهويل الواهنيين وهبوا أن قبلة الصلاة تغيرت أو كانت الصلاة بلا قبلة أصلاً فهل ذلك أمر له أثر في تركية النفوس واتصافها بالبر؟! (١)"

وقد التقى مفتتح هذا المعنى وعجزه في أكثر من موضع؛ ذلك أن

عجز هذا المعنى يكاد يتعاقب مع المعنى الأول كاملاً؛ لذا نجد عجزه يبدأ

من الآية رقم (١٥١) إلى الآية (١٧٧) على ما يلي بيانه:

● فقد بدأ هذا المعنى بالتحذير من حقد أهل الكتاب والمشركين وختم بذكر

عاقبة أهل الكتاب والمشركون، فقال - سبحانه في صدر المعنى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: ١٠٥] **وقال في العجز** في عاقبة أهل الكتاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٧٤] وقال في عاقبة المشركين: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] وغيرها من الآيات التي جاءت في بيان عاقبة كلا الفريقين في هذا المعنى.

- **ولما أجمل في صدر المعنى** الكلام عن الخير الذي أوغر قلوب أهل الكتاب والمشركون فقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: ١٠٥] **فصل في عجزه** هذا الخير فقال: ﴿كَمَّا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥١]

- **ولما تحدث في الصدر** عما سيلقونه من ابتلاءٍ بسبب حقد أهل الكتاب والمشركون عليهم، ومحاولاتهم صرفهم عن دينهم بالطعن فيه وصددهم عن سبيل الله، أمراً لهم بالعفو والصفح عن ذلك حتي يأتي أمر الله

والانصراف إلى صلاتهم وعباداتهم فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُقَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَلَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَخْتَدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٠٩-١١٠] **ختم سبحانه بمثل ذلك** حين أمرهم بالصبر والصلاة على البلاء، وحين عرفهم أن ما يلقونه من أذى ما هو إلا ابتلاء منه سبحانه فيجب عليهم الصبر حتى تأتيهم البشرى منه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٣-١٥٧]

- **ولما بدأ** هذا المعنى بالكلام عن تحويل القبلية وهو من جملة المراد بالنسخ والتغيير، فقال في صدر المعنى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٠٦] ، **ختم بذلك فقال في العجز:** ﴿لَيْسَ إِلَهِ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ... الآية ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] قال الإمام البقاعي: " (أَوْ نُنسِهَا) بأن نؤخر نسخها أو نتركه - على قراءة (نُسِهَا) زماناً ثم ننسخها كالقبلة (نَأْتِ) عند نسخها (بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) " (١)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٩٤/٢.

- **ولما بدأ المعنى بزم أهل الكتاب الذين يكتمون الحق الذي يعلمونه، فقال في صدر المعنى:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩] **ختم بذلك فقال في عجزه:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٧٤].

المعقد الثاني للسورة ومعانيه الجزئية:

من الآية (١٧٧) إلى الآية (٢٨٦)

يبدأ هذا المعقد من قول الله -عز وجل- ﴿لَيْسَ إِلَهِكَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] إلى نهاية السورة.

غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة:

غرض هذا المعقد بيان أهم ما شرعه الله -سبحانه- لعباده من عبادات ومعاملات؛ مناسبة لسياقها التنزيلي والترتيبى؛ تأسيساً لمجتمعهم وإقامة لدولتهم وترتيباً لأولويات عباداتهم، فجمع لهم في هذا المعقد الأركان الأساسية لهذا الدين من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد، وبين لهم ما يحتاجون إليه من أحكام القصاص والنكاح والطلاق والرضاع والنفقة، وكذا الإنفاق في سبيله وترك الربا وأحكام الدين.

فبعدما هيأهم في المعقد الأول ببيان عاقبة من هدامهم الله فجحدوا وكفروا وجادلوا أنبياءهم وغيروا وبدلوا، وبعدما أعطاهم بذلك العبرة والعظة، محذراً من مخالفة أمره وترك تكاليفه وشرعه، أخذ في بيان ما شرعه لهم وما فرضه عليهم تفصيلاً؛ ليكون ذلك أدعى لامتنال أمره وأخذ ما شرع بعزم

رد عجز المعقد على صدره:

(۸۷۱۵)

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا
فَاَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٤﴾ [سورة البقرة: ٢٨٤-٢٨٦]

وآية ليس البر واسطة عقد بين معقدي السورة، فكما كانت عجزاً يجمع ما صُدِّرَ به المعقد الأول وما حواه، ومرشدةً إلى الهدى الذي فرط فيه الضالون من أهل الكتاب قبلنا، جاءت كذلك صدرًا يحوي جماع ما سيُشرع للمؤمنين في هذا المعقد، فلها وجهان من المعاني: وجه يولي شطر ما فات ينعي على الكافرين كفرهم ومخالفاتهم ونقضهم لعهد الله - سبحانه - ويُعرض بهم، ووجه يولي شطر ما هو آتٍ يحث المسلمين على مخالفة الزائغين عن الهدى ممن سبقوهم، ويدعوهم إلى كل برٍ، ويشجعهم على كل خير مما غفل عنه من كان قبلهم، على التفصيل التالي:

• فإذا نظرنا إليها كعجزٍ للمعقد الأول وجدناها تُختم بما بدأ به المعقد هناك وتُجمل خلاصة ما مرَّ فيه من مواعظ وعبر من أحوال أهل الكتاب والمشرّكين، ففيها:

١. ردُّ لباطل أهل الكتاب وطعنهم في أمر القبلة ﴿لَيْسَ إِلَهِ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

٢. وفيها تعريضٌ بكفر أهل الكتاب وطعنٌ فيهم:

✓ فحين تقول الآية: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ فإنها تعرض بهم وبكفرهم بالله ورسله، السابق ذكره في مثل قوله سبحانه فيهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٥٥] وبكفرهم بكتاب الله المنزل عليهم ونبذهم له، في مثل قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٨٩] وبعادوتهم لرسول الله وملائكته الوارد ذكرها في

قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة البقرة: ٩٧-٩٨]

✓ وحين نقول: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ فإنها تعرض بتضييعهم لحق ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وسفكهم لدمائهم، وتضييعهم لصلاتهم وزكاتهم ونقضهم لعهود الله ومواثيقه في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة البقرة: ٨٣]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فِرْقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ فَتُدْوَهِمُ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٨٤-٨٥]. ومثل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة البقرة: ٩٣]، وقوله: ﴿أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٠٠].

✓ وغير ذلك كثير مما أومأت إليه الآية تعريضاً بهم وتسفيهاً لعقولهم وأحلامهم، وله دلالات وشواهد كثيرة في المعقد الأول.

٣. وفيها كذلك تعريض بالمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بالملائكة والكتاب والنبیین، الذين يتخذون من دونه أنداداً وقد سبق ذكرهم في آيات المعقد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥]

٤. ثم إن في الآية تثبيت للمؤمنين وتسلية لهم على ما أصابهم وما سيصيبهم في سبيل دعوتهم مما لاقوه في أمر القبلية وما سيلقونه وهو أشد من ذلك وأعظم، فقال الحق لهم هنا: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [٧٧] فإنها إشارة لقوله هناك عند الكلام عن الابتلاء: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥٢] وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ [١٥١] وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [١٥٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [١٥٦] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [١٥٧]﴾ [سورة البقرة: ١٥٣-١٥٧].

ومن عجائب أسرار العبارة القرآنية الذي يؤكد هذا المعنى ويقرره قطع الصابرين إلى النصب على الرغم من عطفها على مرفوع، لأن ماسبقها كان تعريضاً بأهل الكتاب، أما قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ فهي تنويه بالمسلمين، أي أعني أو أخص الصابرين في البأساء والضراء فهم الأولى بأن يوصفوا بالبر والتقوى،

فلما كان ما سبق في الآية من صفات داخل في الطعن في بني إسرائيل وموغل في بيان نقائصهم، وكانت هذه الجملة تنويهاً بالمؤمنين وبياناً لمثاليّتهم، فُطع الكلام عن سابقه بياناً للمغايرة والتباين بين الفريقين، فريق هدى الله وفريق حق عليهم الضلالة.

• ثم إننا إذا نظرنا إلى تلك الآية كصدر لهذا المعقد الثاني وجدناها تُجمل للمسلمين أركان دينهم وثوابت إيمانهم ومعاملاتهم التي شرعها لهم ربهم، والتي سيعرضها عليهم تفصيلاً في هذا المعقد، ثم يختم بمثل ذلك.

✓ فهي تجمع لهم أركان الإيمان من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ كَذِبٌ مُّذْنَبٌ﴾ وهو ما يُختم به المعقد هناك.

✓ وهي تذكر شطر أركان الإسلام إجمالاً التي كانت موجودة قبل نزول الآية من إيمان بالله وبالنبي -ﷺ- وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾، وفي أثناء المعقد يرد فرض ما بقي من الأركان من صيام وحج، ويرد التأكيد على ما أجمل من صلاة وزكاة في مثل قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٨] وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٧].

✓ وهي تحثهم على الوفاء بعهد الله وميثاقه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ ألا يقولوا: سمعنا وعصينا ولا يكونوا كمن نقض عهد الله بعد ميثاقه من أهل الكتاب، وأول عهوده واجبة الوفاء هي اتباع أوامره واجتناب نواهيه فيما كلفهم به وما نهاهم عنه؛ لذا تختتم السورة بتبرؤ المؤمنين من نقض عهده عمداً أو مخالفة أوامره قصداً ﴿وَقَالُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْمَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ ﴿٢٨٦﴾

✓ وتحثهم على الإنفاق في سبيله إجمالاً ثم تفصيله في ثنايا المعقد في مثل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٥] وفي قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢٠] وفي معنى كامل من هذا المعقد يبدأ من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤].

✓ وتحثهم على القتال في سبيله والصبر على البأساء والضراء إجمالاً ثم تفصيله في ثنايا المعقد في مثل قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٠-١٩١] وفي قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] وفي قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٤٤].

وغير ذلك كثير مما حوته الآية إجمالاً وفصلته المعاني الجزئية للمعقد
تفصيلاً، ثم ختم به مردوداً عجزه على صدره.
وقد أدى هذا المعقد مقصده بثلاثة معانٍ جزئية رُدت أعجازها
جميعها على صدورها كذلك، في نظم بديع على ما سأبينه فيما يلي، مبرراً
دور تلك المعاني في بناء غرض المعقد، وأثر ظاهرة رد الأعجاز على
الصدور في بيان خفيّ تناسب آياتها.

المعنى الأول:

من الآية (١٧٧) إلى الآية (١٨٩)

وغرضه: التعريض ببني إسرائيل في سياق التشريع للمسلمين ببعض
الشرائع والأحكام التي حرّفها بنو إسرائيل اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وفي ذلك
تخلص رائق بديع، فحين وقع هذا المعنى بين معقدي السورة الأول الذي
يبين ضلال أهل الكتاب ويحذر منهم والثاني الذي يشرّع للمسلمين ويكلف
ويوجّه، يجيئ هذا المعنى مازجاً بين التبشيع والتشريع، التعريض
بالمفترطين في هدى الله والتشريع والتوجيه للمهتدين من المؤمنين، على ما
سيأتي بيانه.

وقد رُدت عجز هذا المعنى كذلك على صدره في نظم عجيب، وبيان
بديع **فصدره:** قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

وعجزه: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ
الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩]

فبدأ ببيان حقيقة البر والتقوى وختم به، ذلك أن أهل الكتاب لما
اتّخذوا أمر تحويل القبلة مدخلاً للطعن في الإسلام؛ ضلالاً وبهتاناً، ومحاولةً
لصرف الناس عن دينهم وردّهم إلى الكفر بعد إيمانهم، مع علمهم أن ما
عليه المسلمون هو الحق من عند ربهم، جاءت آية ليس البر لتعرّض بهم

وبضلالهم وتحريفهم، مبيّنة أن البر ليس في اتباع القبلة وتضييع كل ما عداها من أحكام الشرع وتكليفات الدين؛ ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ الآية﴾ ثم جاءت تنمة المعقد تشريعاً
للمسلمين ببعض الشرائع التي فرط فيها اليهود وبدّلوها عن وجهها زوراً
وضلالاً وبُهتاناً.

وكنت دوماً أتساءل عن وجه اختيار تلك الأحكام خاصة لبدء
التشريع بها، فلماذا يبدأ التشريع كله بتشريع القصاص دون أركان الدين
الأساسية؟ وعلى الرغم من وجاهة ما قاله سادتنا المفسرون من أن السر في
ذلك هو (الحث على حفظ النفس، وحفظ النفس من أعظم مقاصد الشريعة
التي جاء الإسلام ليقررها)؛ إلا أن ذلك ما كان يروي غلتي، وما كنت أراه
السبب الأوحد لذلك مع أهميته، حتى وقع في روعي أن في ذلك البدء -فوق
ذلك- تعريضاً وطعنًا في أهل الكتاب؛ لأن تلك التشريعات والأحكام المبدوء
بها مما فرط فيه أهل الكتاب وبدلوه وحرّفوه عن وجهه.

فإذا كان أهل الكتاب بطعنهم في المسلمين عند نسخ القبلة
وتحويلها قد اتبعوا طريقة (رمتني بدائها وانسلت) فإن تلك الأحكام
والتشريعات التي ساقها المعنى هنا للمسلمين جاءت طعنًا في أهل الكتاب
وتعريضًا بهم على طريقة (إيّاك أعني واسمعي يا جارة)، وهاك البيان.

١. بدأ -سبحانه- بحكم القصاص لأن أهل الكتاب حرّفوا أمر التوراة في
القصاص وبدّلوه واتبعوا نهج المشركين في التكايل في الدم والإيغال في
القتل، مخالفين بذلك صريح قول الحق -سبحانه- في سورة المائدة:
﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسَّيْفَ بِالسَّيْفِ وَأَلْجَوْحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَمَافَرَةٍ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾﴾
[سورة المائدة: ٤٥] يقول الإمام البقاعي: "ولما كان أهل الكتاب قد بدلوا

حكم التوراة في القصاص الذي أشير بآية المائدة إلى أنه كتب عليهم العدل فيه، فكان من كان منهم أقوى جعل لقومه في ذلك فضلاً، فكان بنو النضير -كما نقله ابن هشام في السيرة- يأخذون في قتلهم الدية كاملة، وبنو قريظة نصف الدية وكان بعضهم -كما نقله البغوي في سورة المائدة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما- يقتل النفس بالنفس أشار سبحانه وتعالى إلى مخالفتهم في هذا الجور^(١).

وروى الشيخ الطاهر عن السدي قوله: "كان بين قريظة والخزرج حلف، وبين النضير والأوس حلف، في الجاهلية وكانت النضير أكثر وأشرف، فكانوا إذا قتل قرطي نضيراً قتل به وأخذ أهل القتل دية صاحبهم بعد قتل قاتله، وكانت الدية مائة وسق من تمر، وإذا قتل نضيري قرظياً لم يقتل به وأعطى ديته فقط: ستين وسقاً. فلما أسلم نفر من قريظة والنضير قتل نضيري قرظياً واختصموا، فقالت النضير: نعطيكم ستين وسقاً كما كنا اصطالحنا في الجاهلية، وقالت قريظة: هذا شيء فعلتموه في الجاهلية لأنكم كثرتم وقللنا فقهرتمونا، ونحن اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد"^(٢).

٢. ثم ذكر الوصية للوارثين لأنهم حرفوا كذلك شرع الله في الوصية للوارثين بما يرضى طمعهم ويشبع جشعهم، فكان اليهود كالمشركين يأكلون حق النساء في الميراث بنتاً كانت أو زوجة أو أختاً، وكانوا من باطلهم لا يورثون البنات إذا وجد الابن الذكر أو ابن الابن أو حتى بنت الابن، فلو لم يوجد الذكر فلا ترث البنت إلا إذا تزوجت من القبيلة نفسها ضماناً لاستيلائهم على المال وعدم خروجه من بين أيديهم، وكذا الأخت لا ترث في وجود الأخ الوارث، ولا حق للزوجة في مال زوجها إلا النفقة عليها مدة بقائها في بيت زوجها بين أبنائها بعد

(١) نظم الدرر ٢٤/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٠٢/٥.

وفاته فإن رجعت لبیت أهلها فلا حق لها، وغير ذلك كثير من الصور التي حرفوها وبدلوها في شرع الله ﷻ في المواريث (١).

٣. ثم ذكر سبحانه الصيام قائلاً -جل من قائل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١٨٣] فوق ما فيه من تشريع للمسلمين تعريض بأهل الكتاب كذلك؛ لأنه كان مما كنموه وأخفوه، قال الإمام البقاعي: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي فرض، فالتشبيه في مطلق الفرض ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾ وكأنه أريد أهل الكتابين فقط، وأثبت الحال فقال: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه إشعار بأنه مما نقضوا فيه العهد فكنموه حرصاً على ضلال العرب (٢).

٤. ثم ذكر -ﷻ- أكل الأموال بالباطل لأنه مما فشا فيهم وشاع، قال البقاعي: "فعل كذلك في المال الذي منه الأكل لأنه قد كان مما خان فيه أهل الكتاب عهد كتابهم واشتروا به ثمناً قليلاً كثيراً من أمره لا سيما تحريم الرشوة فإنهم أخفوه واستباحوها حتى صارت بينهم شرعاً متعارفاً" (٣).

٥. وأخيراً ذكر سؤالهم عن الأهله، والسائل هم اليهود كما قال الواحدي في أسباب النزول: "قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ تَغْشِيَانَا وَيُكْثِرُونَ مَسْأَلَتَنَا عَنِ الْأَهْلَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ" (٤).

(١) يراجع في ذلك: ١. نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام ا. د. صابر أحمد طه، طبعة نهضة مصر إبريل ٢٠٠٠ م.

٢. المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة د. عبد الرازق قنديل، طبعة مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة عام ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٤٤.

(٣) السابق ٣/ ٩٣.

(٤) أسباب النزول للواحدي ١/ ٥٣ تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

وقد كثر كلام ساداتنا المفسرين -رضوان الله عليهم- في جهة نظم هذه الآية، ذاكرين أن المشركين سوى الخمس منهم كانوا إذا أحرموا لا يدخلون بيوتهم من أبوابها وإنما ينقبون لهم نقباً في ظهورها، وقال بعضهم: إن المسلمين في أول عهدهم كانوا يفعلون مثل ذلك ثم نهاهم الرسول -ﷺ- عن ذلك؛ ولكنهم لم يبينوا جهة المناسبة بين السؤال عن الأهله وبين هذه القصة التي ذكروها، الأمر الذي توقّف عنده الإمام الرازي قائلاً: "قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى هَذِهِ الْأَجْوَالِ الَّتِي رَوَيْنَاهَا فِي سَبَبِ النُّزُولِ، إِلَّا أَنَّ عَلَى هَذَا التَّفْدِيرِ صَعْبُ الْكَلَامِ فِي نَظْمِ الْآيَةِ، فَإِنَّ الْقَوْمَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي تَغْيِيرِ نُورِ الْقَمَرِ، فِذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ قَوْلُهُ: قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيَجِ فَأَيُّ تَعَلُّقٍ بَيْنَ بَيَانِ الْحِكْمَةِ فِي اخْتِلَافِ نُورِ الْقَمَرِ، وَبَيْنَ هَذِهِ الْقِصَّةِ،..... فَإِنَّ تَفْسِيرَهَا بِالْوَجْهِ الْأَوَّلِ يَطْرُقُ إِلَى الْآيَةِ سُوءَ التَّرْتِيبِ وَكَلَامَ اللَّهِ مُنْزَعًا عَنْهُ"^(١).

والأمر الذي أوقع أكثر ساداتنا في هذا هو إجراؤهم للكلام على حقيقته، والذي أرجحه ما ذكره الإمام الرازي في قول نسبه للمتكلمين في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أن الكلام هنا على المجاز، قال الإمام: "الْقَوْلُ الثَّانِي: فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ظَاهِرُهُ..... فَجَعَلَ اثْنَانِ الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا كِنَايَةً عَنِ الْعُدُولِ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَإِثْنَانِهَا مِنْ أَبْوَابِهَا كِنَايَةً عَنِ التَّمَسُّكِ بِالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهَذَا طَرِيقٌ مَشْهُورٌ فِي الْكِنَايَةِ فَإِنَّ مَنْ أَرَشَدَ غَيْرُهُ إِلَى الْوَجْهِ الصَّوَابِ يَقُولُ لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ وَفِي ضِدِّهِ يُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الشَّيْءِ مِنْ

غَيْرِ بَابِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٨٧] وَقَالَ: ﴿وَأَخَذْنَاهُ وَرَاءَ كُمٍ﴾ [هُود: ٩٢] فَلَمَّا كَانَ هَذَا طَرِيقًا مَشْهُورًا مُعْتَادًا فِي الْكِنَايَاتِ، ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى هَاهُنَا^(١).

وهذا الوجه هو الأولى والأحق بالقبول وإن كان الحقيق بالأسلوب هنا أن يُجرى على الاستعارة التمثيلية وليس الكناية، وهو ما رجحه الإمام الألوسي حيث جعل الصورة من قبيل "الاستعارة التمثيلية بأن يكون قد شبه حالهم في سؤالهم عما لا يهم، وترك المهم بحال من ترك الباب وأتى من غير الطريق للتنبيه على تعكيسهم الأمر في هذا السؤال، فالمعنى وليس البر بأن تعكسوا مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك"^(٢).

لطيفة في رد عجز هذا المعنى على صدره:

وحين قلت: إن هذا الرأي هو الأجدر بالقبول فإنني أقصد إجراءه على المجاز؛ ولكني أرى أن جهة إجرائه على المجاز مختلفة عن هذا المعنى القريب الذي ذكره الإمام الألوسي والإمام الرازي قبله مع صوابه، حين حصروا الصورة في النطاق الضيق للآية المذكورة فيها، فإنني أرى أن طرفي المجاز ليس هذا المعنى المحصور في الآية؛ وإنما طرفاه صدر المعنى هناك وعجزه هنا، أي ليس البر بأن تحصروا الدين في قبلة تولوا وجوهكم قبلها وتضيعوا كل ما عداها من أحكام دينكم؛ ولكن البر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية، فلا تكونوا كمن يأتون البيوت من ظهورها تاركين أبوابها، فاتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله،

(١) مفاتيح الغيب ١٣٥/٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ١/٤٧٠، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

فشبه حالهم حين طعنوا في غير مطعن وتركوا أساس الدين وقوامه الذي فرطوا فيه بحال من أتى البيت من ظهره وترك الباب، فأتى من غير الطريق؛ خطأ للأمور وتعكيساً.

فقله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ كأنه معطوف على صدر الكلام هناك، أي: ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب وليس البر بأن تأتوا الأمور من ظهورها وتحرفوا الأشياء عن حقيقتها وأن تضيعوا دينكم كله وتنقضوا عهد الله بعد ميثاقه ثم تقيمون الدنيا ولا تقعدونها حين يحول المسلمون قبلتهم بأمرٍ من ربهم تعرفون أنتم أنه الحق، فليس البر ما تهوِّشون به ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾.

المعنى الثاني:

من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢٥٣)

وغرضه: عرض بقية تشريعات وتكليفات الدين الإسلامي التي يقوم على بيانها هذا المعقد، فإذا كان ما سبق في المعنى الأول تشريع ممتزج بتعريض بأهل الكتاب وتوبيخ لهم وانتقاص منهم، فإن تشريعات هذا المعنى خالصة لخطاب المسلمين؛ بناءً لمجتمعهم وإقامة لدولتهم خارجياً وداخلياً، أما خارجياً فمع أعداهم وأما داخلياً فمع أهلهم وأبنائهم وروابطهم الاجتماعية القائمة على النقاء والعفاف والطهر، فهي جملة من التشريعات التي تهدم باطل الجاهلية ودنسها وزيفها وظلمها وتبني على أنقاضه صرحاً شامخاً من الأحكام والشرائع المؤسسة على العدل والقسط والعفاف والطهر في المعاملات، والعلاقات الاجتماعية والأسرية.

وقد بدأ هذا المعنى على عادة جُل المعاني القرآنية بمثل ما ختم به لفظاً ومعنى، فصدره: تشريع قتال المشركين والحث عليه قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠] وعجزه أمر بالقتال كذلك وحث عليه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ [سورة البقرة: ٢٤٤] **وبيان لمشروعيته**
والحكمة منه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

لطيفة في رد عجز هذا المعنى على صدره:

من عجيب هذا المعنى أنه حصر الأحكام والتشريعات الأسرية بين الأمر بالقتال أولاً وآخراً، وكأن الحق - سبحانه - يعلمنا أن المجتمع الإسلامي لابد أن يكون مجتمعاً قوياً مترابطاً داخلياً في علاقاته الأسرية المبنية على العدل والإحسان والعفة والطهر، وخارجياً في معاملاته مع أعدائه المبنية على القوة والندية وعدم الركون أو التهاون في دفع العدوان أو رد الاعتداء ولو كان الثأر ودفع الظلم في الشهر الحرام والبلد الحرام ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مَنۢ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمۡ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ مِمَّا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣].

وقد أدى هذا المعنى غرضه بثلاثة أقسام من المعاني **القسم الأول:** فيه الحث على القتال وتحبيبه لنفوس المؤمنين، **والقسم الثاني:** بيان لجملة أحكام المعاملات الزوجية والأسرية في الإسلام، من نكاح وطلاق وعدة ونفقة ورضاع، **والقسم الثالث:** عودة للحث على القتال وبيان لحكمة مشروعيته وضرب للمثل بمن تقاعس عن أمر الله به من بني إسرائيل شحذاً لهمة المؤمنين، وحثاً لهم على بذل نفوسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله.

القسم الأول:

من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢١٨)

وغرضه: الأمر بالقتال ودفع اعتداء المشركين؛ نصرة للدين وإعلاء لكلمة الله وقد امتزج هذا التشريع بتشريع الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج (١)؛ ذلك لأن أداء الحج والعمرة في ذلك الوقت كان مشوباً بتعرض المشركين لهم واعتدائهم عليهم ومنعهم من الوصول لبيت الله الحرام، وآيات هذا الموضوع نزلت عام الحديبية -كما قال المفسرون- فقدّم بين يدي تشريع الحج والعمرة تشريع القتال بعدما ألمح -سبحانه- لتشريع الحج في الآية الأخيرة من المعنى السابق: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، قال الشيخ الطاهر: "وهو استطراد دعا إليه استعداد النبي -ﷺ- لعمرة القضاء سنة ست وتوقع المسلمين غدر المشركين بالعهد، وهو قتال متوقع لقصد الدفاع لقوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾" (٢).

وقد رُدَّ عجز هذا القسم كذلك على صدره فُخِّمَ بمثل ما يُدْئى به في نظم بديع -جلّ مبدعه-، فقد ائتملت معانيه تألفاً رائقاً، وتعانق صدره وعجزه تعانقاً بيّناً ظاهراً، على الرغم من أنه يحوي تشريعين من أعظم تشريعات الإسلام هما الحج والجهاد.

فقد تلاقي صدره وعجزه في أكثر من معنى على ما يلي بيانه:

أولاً: بدأ في الصدر بتعظيم حرمة البلد الحرام والشهر الحرام ونهي المسلمين عن قتال المشركين فيه إلا في حال تعرض المشركين لهم، وختم كذلك بتعظيم حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وتحريم القتال فيه:

(١) بعد تشريع الرابع بذكر الصيام في المعنى السابق، وبعد ذكر الثلاثة الأولى في آية ليس البر.

(٢) التحرير والتنوير ١٩٩/٢.

فقال في الصدر: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَلَقُواهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ [سورة البقرة: ١٩١] **وقال -سبحانه-:** ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَن أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدَّوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [سورة البقرة: ١٩٣]

وقال في العجز: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۝﴾ [سورة البقرة: ٢١٧].

ثانياً: في صدر المعنى بشع الفتنة وإرهاب أهل المسجد الحرام وإخراجهم من ديارهم وجعلها أشد وأعظم من القتل فقال -سبحانه-: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۝﴾ [سورة البقرة: ١٩١].

وفي العجز كذلك جعل الفتنة وإخراج المسلمين من ديارهم والصد عن سبيل الله والكفر به أعظم وأكبر من القتل فقال: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۝﴾ [سورة البقرة: ٢١٧].

ثالثاً: وفي الصدر حث المسلمين على قتال المشركين حتى تباد فتنتهم ويكون الأمر كله لله، فقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ

أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝﴾ [سورة البقرة: ١٩٣].

وفي العجز حذر المسلمين من التهاون في قتالهم؛ لأنهم لن يتهاونوا في قتال المسلمين وردهم عن دينهم إن استطاعوا فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [سورة البقرة: ١٩٣].

رابعاً: حثهم في الصدر على الإنفاق في سبيل الله فقال: ﴿وَالْفَقْرُ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [سورة

[البقرة: ١٩٥]

وَبَيِّنْ لَهُمْ فِي الْعِزِّ بَعْضَ مَصَارِفِ الْإِنْفَاقِ فَقَالَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِلسَّيِّمَةِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٥].

القسم الثاني:

من الآية (٢١٩) إلى الآية (٢٤٢)

وغرضه: تشريع أحكام المعاملات الزوجية والأسرية في الإسلام من نكاح وإيلاء وطلاق ورضاع وعدة ونفقة، وقد رُدَّ عجز هذا القسم على صدره كذلك.

فصدره قول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ أَعِفُّ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٩]
وعجزه قول الله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤١-٢٤٢]

جهات تناسب هذا القسم وأتلافه مع سابقه:

قد تعددت وجوه تناسب هذا القسم وتنوعت جهات تناسله من سابقه على ما يلي:

الوجه الأول:

ما ألمحت إليه سابقاً من أن الله -ﷻ- لما بيّن لعباده أسس تعاملهم مع أعدائهم من وجوب صدّ عدوانهم ودفع اعتدائهم ومعاملتهم بما يليق بهم من قسوة وقوة وندية، ففرض لهم القتال؛ دفاعاً عن أنفسهم ونصرة لدينهم، بيّن لهم كذلك أسس تعاملهم في مجتمعهم الداخلي وفي بيوتهم مع أسرهم وأهليهم؛ ليؤسّس مجتمعهم خارجياً على القوة والبطش والندية والمعاملة بالمثل في الاعتداء مع أعدائهم، وداخلياً على الرحمة واللين والرفق والعفو

والتكافل والبذل مع زوجاتهم وأولادهم وضعفائهم وفقرائهم؛ ليكون مجتمعاً صلباً قوياً خارجياً، ومتربطاً متيناً داخلياً.

وإذا كانت الآيات تعلم المسلمين القوة والبطش والندية في مواجهة أعدائهم فنقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ونقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ ونقول: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ونقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، فإنها هي نفسها التي تعلمهم الرحمة واللفظ واللين والرفق والسماحة والبذل والعفو في تعاملهم مع ضعفائهم ونسائهم وأهليهم فنقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تُلَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ ونقول: ﴿الَّذِينَ طَلَّقُوا النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾ ونقول: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ﴾ ونقول: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ونقول: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ونقول: ﴿وَلَمْ تَطْلِقْتِ مَتَّعًا بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾. فالله سبحانه أرادهم كما وصفهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]

الوجه الثاني:

من لطائف تناسب هذا القسم وتولده من سابقه: أنه - سبحانه - يعلم كره النفس البشرية - ومنها نفوس المؤمنين - للقتال حيث قال لهم في نهاية القسم السابق من المعنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] ويعلم أن نفوسهم إنما تكره القتال لأحد سببين إما الخوف على ضياع ذريتهم وأزواجهم إن قُتل العائل، وإما الخوف على النفس من الهلاك

والموت، فلما علم ذلك منهم بعلمه الأزلي - سبحانه - أراد أن يبدد خوفهم ويذهب خشيتهم ويبدلها إقداماً وثباتاً، فطمأنهم أولاً على ذراريهم بأن أوصى الباقين بعدهم من إخوانهم باليتامى فقرائهم وأغنيائهم، فحصر آية كره القتال بين وصيتين:

الأولى: الوصية بفقراء اليتامى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِلسَّيِّئَةِ وَالْمَسْكِينِ وَالنَّسِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ٢١٥﴾ [سورة البقرة: ٢١٥].

والثانية: الوصية بأغنيائهم بالإصلاح لهم ورعايتهم ومخالطتهم: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٠﴾ [سورة البقرة: ٢٢٠]

ثم أمر من بقي من المسلمين بنكاح المؤمنات - ولو كن إماء - ليدخل فيه الترغيب في نكاح الثيبات والأرامل، وبذلك طمأنهم على زوجاتهم وذراريهم فلن يضيّعهم الله أبداً بعدهم.

ثم طمأنهم ثانية على أنفسهم لما علم أن بعضهم قد يُحجم خوفاً على نفسه الهلاك بأن بين لهم جزيل الجزاء الذي أعده لهم؛ ليرغبهم في بذل نفوسهم في سبيل الله ابتغاء رضوانه وحسن جزائه ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١٦﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١٧﴾ [سورة البقرة: ٢٤٤-٢٤٥].

ثم أعلمهم أن الفرار من القتل لن ينجيهم من الموت فضرب لهم المثل بالذين ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣]

ثم نفّروهم من التشبه بملا بني إسرائيل الذين ﴿قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ

لَنَا مَلِكًا نَقُتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]

الوجه الثالث:

أنهم لما سألوا عن النفقة بيّن لهم أولاً ما يستحب من النفقة وهو ما ينفق على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٥] وبيّن لهم ثانياً ما يحرم منها وهو كل ما ينفق في معصية وفي إتلاف المال كالذي ينفق في الخمر الذي يتلف العقل، أو الميسر الذي يورث الكراهية والبغضاء، ثم بيّن لهم ثالثاً هنا ما يجب منها وهو النفقة على الزوجات والأبناء والمطلقات.

الوجه الرابع:

أنه سبحانه لما أمر المسلمين بقتال المشركين ناسب ذلك أن يأمرهم بترك الزواج منهم ومصاهرتهم؛ وإلا فكيف يحثهم على قتالهم وإبادة فتنهم ثم يشرع لهم وصلهم وبناء علاقات نسب وقربى ومصاهرة بينهم.

القسم الثالث:

من الآية (٢٤٣) إلى الآية (٢٥٣)

وغرضه: العودة للترغيب في القتال والحث عليه ببيان الحكمة منه وبالغ فضل الله على خلقه في تشريعه والحث عليه.

وقد ردّ عجز هذا القسم من المعنى على صدره كذلك، فبدأ القسم بتذكير الناس بفضل الله عليهم في تشريع القتال وحثهم عليه وختم به.

فصدره قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣]

وعجزه قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١]

أما آية (تلك الرسل) فهي عجز المعنى كله، وقد ذكرتها هناك عند الكلام عن عجز المعنى الذي يجمع الأقسام الثلاثة.

حكمة مشروعية القتال التي بينتها الآيات:

من عجيب أمر الحديث عن القتال في هذه الآيات أن جعلته من تمام فضل الله على الناس في البدء والانتها، ففي صدر المعنى ذم الحق - سبحانه - فعل الذين كتب عليهم القتال ففروا منه وخرجوا من ديارهم؛ جبناً عن لقاء عدوهم وحذر الموت، ووصف فعلهم ببطر النعمة وكفران الفضل فقال: **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴿٢٥٢﴾، وفي العجز جعل القتال ودفع الناس بعضهم ببعض من تمام فضله - سبحانه - وعظيم نعمته التي بها يحفظ الأرض فقال: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** ﴿٢٥٣﴾، قال الشيخ الطاهر رحمه الله تعليقاً على هذه الآية: "هذه الآية عبرة من عبر الأكوان وحكمة من حكم التاريخ، ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها" (١)، ثم بيّن - رحمه الله - معنى كون القتال نعمة ربانية تستحق الشكر بياناً لم يترك مطمعاً لأحد بعده في زيادة فقال: "خلق الله تعالى أسباب الدفاع [في المخلوقات كلها] بمنزلة دفع من الله يدفع مريد الضر بوسائل يستعملها المراد إضراره، ولولا هذه الوسائل التي خولها الله تعالى أفراد الأنواع، لاشتد طمع القوى في إهلاك الضعيف، ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره، فابتزها منه، ولأفرطت أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب

النافع الملائم لغيرها، مما هو له، ولتناسي صاحب الحاجة حين الاحتياج ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضاً. وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره، وكل قوي على ضعيفه، فيهلك القوي الضعيف، ويهلك الأقوى القوي، وتذهب الأفراد تبعاً، والأنواع كذلك حتى لا يبقى إلا أقوى الأفراد من أقوى الأنواع، وذلك شيء قليل، حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه، وكان يجدها في غيره من أفراد نوعه، كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض، أو من أنواع آخر، كحاجة الإنسان إلى البقرة، فيذهب هدرًا..... وبهذا الدفاع حصلت سلامة القوي، وهو ظاهر، وسلامة الضعيف أيضاً لأن القوي إذا وجد التعب والمكدرات في جلب النافع سئم ذلك، واقتصر على ما تدعو إليه الضرورة..... وأعظم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب؛ فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبال حرب العادلة ينتصف المحق من المبطل، ولأجلها تتألف العصبية والدعوات إلى الحق، والإنحاء على الظالمين، وهزم الكافرين" (١).

المعنى الثالث:

من الآية (٢٥٤) إلى الآية (٢٨٤)

وغيره: الحث على الإنفاق في سبيل الله وبيان عظيم أجر المنفقين. وهو من أول قول الله -ﷻ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤] إلى قوله سبحانه ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٤]

وقد بدأ هذا المعنى بمثل ما ختم به **فصله** الأمر بالإنفاق استعداداً للقاء الله

- عز وجل - الذي له ما في السماوات وما في الأرض فلا يملك لهم أحد من الله شيئاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤-٢٥٥]

وختم بمثل ذلك **فعجزه** يذكرهم بأن ملك السماوات والأرض لله وحده وأنهم صائرون إليه؛ ليحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة فليستعدوا لذلك، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨٤].

صلة هذا المعنى بسابقه:

لما دعاهم في الآيات السابقة إلى بذل نفوسهم في سبيله - سبحانه - وألح خلاله إلى بذل أموالهم بمثل قوله ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٥] ومثل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٥]. ناسبه أن يخص هذا المعنى بدعوتهم إلى بذل أموالهم في سبيله؛ تطهيراً لنفوسهم؛ وبركة ونماء لأموالهم؛ وإعانة لضعفائهم وفقرائهم. ونقول كذلك: لما بين لهم ما يجب عليهم وما يستحب من النفقة في المعنى السابق، بين لهم هنا جزاء المنفقين في سبيله وما أعده لهم من حسنى جزائه وعظيم ثوابه، في.

لطيفة في رد عجز هذا المعنى على صدره:

من لطائف ردّ عجز هذا المعنى إلى صدره ورود قوله سبحانه: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١] في سياق المعنى وأثناءه، ورد شبيهاً بالصدر وكأنه عجز له وليس كذلك؛ ولكنه جاء فاصلاً بين آخر الكلام عن الربا وبداية الكلام عن الدين، وإنما فصل الكلام عن كتابة الدين عن سابقه بهذا الآية ولم يدخل في حيز الإنفاق وحدوده على الرغم من أنه منه فالربا الذي لا يتأتى إلا بالدين؛ لأن ما سبق في تحريم الربا مزيل بالحث على الصبر على المدين؛ بل والتصدق بقيمة الدين وبذله إن كان المدين معسراً، فهو من جنس الإنفاق الذي يتحدّث عنه سائر المعنى؛ لذا دخل في حيزه وحدوده؛ ولكن لما أخذت الآيات في الحديث عن كتابة الديون المستردة التي لا بذل فيها للمال ولا إنفاق إنما حق مردود لصاحبه فصل الكلام بهذه الآية التي تحمل معنى الصدر والعجز نفسه. ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨١]؛ تنبيهاً على انتقال المعنى لدرجة أقل من الإنفاق وهو الإنفاق لا على سبيل العطية والهبة كالسابق؛ وإنما لأمدٍ ووقت معلوم، وهذا وإن كان من تفريج الكروب التي هي من حسنى الأعمال التي لها حسنى الجزاء عند الله -عزّ وجلّ- إلا أنها ليست من جنس الصدقات ولا الإنفاق في سبيل الله التي تتحدّث عنه الآيات السابقة.

المبحث الثالث

دور رد الأعجاز على الصدور في إظهار خفي مناسبات سورة البقرة

خصصت هذا المبحث لجمع ما قد يخفى تناسبه من معاني سورة البقرة وكان لرد الأعجاز على صدورهما دورٌ في الكشف عن وجه تلاؤمه وتناسبه، وقد وجدت ذلك في ثمانية مواضع.

الموضع الأول:

(ذكر قصة آدم عليه السلام في سياق دعوة الناس لاتباع هدى الله)

وردت هذه القصة في المعنى الأول من المعقد الأول محصورة بين صدر وعجز يدعوان الناس لاتباع هدى الله - ﷻ - وينذر من زاغ وكفر، وقد يدق وجه مناسبتها لسياقها ويلطف؛ لكن المتدبر المتأمل يرى مناسبتها جليلة حين يجد مسبقة بقول الحق سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨-٢٩]، بل وبقوله قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١-٢٢] فلما امتن سبحانه عليهم بخلقه لهم، وتعجب من كفرهم به وهو خلقهم وخلق لهم ما في السماوات وما في الأرض، ناسب ذلك تمام المناسبة أن يبين لهم كيف كان خلقهم وكيف فضلهم على جميع خلقه حين أمر الملائكة -وهم من أشرف خلقه- أن يسجدوا لأبيهم آدم -ﷺ-، وأن يحذرهم من الشيطان عدوهم وعدو أبيهم، الذي أخرجه أولاً من الجنة بوسوسته له، ثم ها هو يوقعهم في الكفر والزلل.

الموضع الثاني:

(ورود قصة البقرة في سياقها الذي وردت فيه)

وهي الآيات من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧] فالسياق الذي وردت فيه هذه القصة آخذ في بيان جحود بني إسرائيل وكفرهم واستحبابهم العمى على الهدى، وعصيانهم ومجادلتهم لأنبيائهم، وتبديلهم نعمة الله كفرًا، ومخالفتهم لشريعته وتركهم لتكليفاته حين خالفوا أوامره وأتوا نواهيهم وعصوا رسله؛ ولكن قد يخفى وجه مناسبة قصة البقرة لهذا السياق، ويزيد الأمر خفاء أن سميت السورة بسورة البقرة؛ إشارة إلى أن هذه القصة تحوي سرَّ السورة ومحورها.

وقد أشرت إلى سر ذلك قبلاً عند الحديث عن مقصود السورة، من أن ذكر قصة البقرة في هذا السياق موعظة لمن يسمع من المؤمنين الذين سنتلى عليهم تكليفات دينهم عما قليل؛ لئلا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل قبلهم من ماطلة في قبول تكليفاتهم ومجادلة لأنبيائهم، وكأن الحق - سبحانه - يقول لنا: خذوا ما آتيتكم بقوة ولا تجادلوا فيه كما فعلت بنو إسرائيل قبلكم، حتى بلغ بهم الغي والضلال أن يجادلوا نبيهم حتى في ذبح بقرة!!

الموضع الثالث:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا

وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وردت هذه الآية في مطلع المعنى الثالث من المعقد الأول، وهو آخذ في بيان حقد أهل الكتاب وحسدهم وغدرهم وخستهم، وقد يسأل سائل: ما علاقة ذلك بالبداء بهذا المعنى؟!

أقول: إن هذه الآية جاءت نموذجاً ودليلاً عملياً لخستهم حين يضمرون سبَّ رسول الله - ﷺ - ويلوون به ألسنتهم، ساقه الحق - سبحانه -

في مطلع كلامه عن حسدهم وغدرهم وطعنهم في الإسلام والمسلمين، قبل ذكر المقصود، من باب ذكر الدليل قبل المستدل عليه وهذا طريق من طرق الخطابة كما يقول الإمام الطاهر تعليقاً على منه قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ قال: إنها وقعت مما بعدها "موقع الدليل قبل ذكر المقصود وهذا طريق من طرق الخطابة أن يقدم الدليل قبل المستدل عليه لمقاصد" (١).

الموضع الرابع:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ ومن تلك المواضع التي قد يخفى تناسبها وتعددت أقوال سلفنا الصالح من المفسرين فيها -رضوان الله عليهم- قول الله -ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٤] ذلك لأن بعض المفسرين -رضوان الله عليهم- رجّحوا أن يكون الوعيد في هذه الآية للمشركين؛ لأنهم القائمون على أمر البيت الحرام وهم المانعون لمن شاعوا، قال الشيخ الطاهر: "وهذا استطراد واقع معترضاً بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم، والآية نازلة في مشركي العرب وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي -ﷺ- والمسلمين من الدخول لمكة" (٢)؛ لكنها وردت في البحث في المعنى الثالث من المعقد الأول كذلك المتحدث عن حقد أهل الكتاب وقد علمنا أن سياق هذا المعنى أخذ في التحذير من حقد أهل الكتاب وحسدهم ومحاولاتهم الطعن في هذا الدين؛ ابتغاء صرف أهله

(١) التحرير والتنوير ٤٧٥/٢.

(٢) التحرير والتنوير ٦٧٩/١.

عنه، وردّهم إلى الكفر بعد الإيمان، وأن من أعظم ما طعنوا فيه أمر القبلة، فالآيات بدءاً من قوله تعالى: (ما ننسخ) إلى نهاية المعقد هي إلا ردّ لإفك أهل الكتاب وبيان لزيغهم، وإظهار لباطلهم وكذبهم وكتمانهم الحق الذي يعلمونه، فإذا علمنا ذلك بان لنا أن هذه الآيات نازلة فيهم كذلك؛ تقبيحاً لفعلهم وتسفيهاً لأحلامهم ووعيداً لهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، حين حاولوا صرف المؤمنين عن التوجه إلى المسجد الحرام، وفتنتهم عن دينهم، وصدّهم عن قبلتهم ووجهتهم التي أمرهم بها ربهم صدّاً بالقول أو الفعل، قال الفخر الرازي: "وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم وهو أن يقال: إنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجيههم إلى الكعبة، ولعلمهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول -ﷺ- لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدّهم الرسول عن المسجد الحرام، وأما حمل الآية على سعي النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضاً على ما شرّحه أبو بكر الرازي، فلم يبق إلا ما قلناه" (١).

ويرجح ذلك تعقيب هذه الآية بقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٥] فهي واردة في السياق ذماً لمن أراد صرف المؤمنين عن قبلتهم والطعن في تحوّلهم من قبلة إلى قبلة، فالآية ترد عليهم زيغهم وباطلهم بأن المشرق والمغرب له

(١) مفاتيح الغيب ١١/٤.

سبحانه يصرف عباده أي جهة شاء، وهو المعنى نفسه الذي ختم به المعقد هناك، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

الموضع الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

هذا الموضع الذي افتتحت به هذه الآية الذي يتحدث عن إبراهيم -عليه السلام- وبناء البيت جاء وسط سياق متصل يتحدث عن ضلال أهل الكتاب عامة وبني إسرائيل خاصة، وهو من أغمض المواضع وأخفاها مناسبة لسياقه، وقد كثر كلام سادتنا -رضوان الله عليهم- فيه، وتعددت اجتهاداتهم في بيان وجه تناسبه وتلاؤمه مع سياقه، فكثير منهم على أن الآية انتقال لمعنى جديد في بيان مكانة إبراهيم -عليه السلام-، قال الإمام الرازي: "شرع سبحانه هنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل" (١)، وقال الشيخ الطاهر: "انتقل إلى توجيه التوبيخ والتذكير إلى العرب الذين يزعمون أنهم أفضل ذرية إبراهيم وأنهم يتعلقون بملته، وأنهم زرع إسماعيل وسدنة البيت الذي بناه" (٢).

ولقد كان لرد الأعجاز على الصدور دور مهم كذلك هنا في بيان وجه مناسبة هذا الموضع واتصاله بسابقه؛ لأنه لما حدد لنا حدود المعنى صدرًا وعجزًا نبه على أن هذا الموضع من حاق المعنى وليس استفتاحًا لمعنى جديد أو انتقالًا لغرض آخر، فدعانا بذلك لتدبر مناسبة واتصاله في هذا السياق

(١) السابق ٣١/٤.

(٢) التحرير والتنوير ٦٩٩/١

المتصل وهو ما هدانا فقه جهة اتصال المعنى واتساقه مع سابه وتاليه، وبأن ذلك في أمرين:

أولهما: أن الآيات السابقة لما اشتملت على توبيخ أهل الكتاب عامة وبني إسرائيل خاصة فناداهم الحق قائلاً: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٢٢] مذكراً لهم بنعمته عليهم حين فضلهم على العالمين وأخرجهم من نسل أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وجعل فيهم الرسل والأنبياء، عاد فذكّرهم بالآخرة التي لن تغني عنهم فيها شفاعة إبراهيم ولا غيره ولن تغني عنهم بنوتهم له من الله شيئاً، فقال: ﴿وَأَقْفُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ * وَإِذْ أَبَتَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَيْمَاتٍ فَاتَمَمْنِ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٣﴾ [سورة البقرة: ١٢٣-١٢٤] فلا تظنون أنكم ناجون لمجرد أنكم أبناء إبراهيم وأحفاده فإن إبراهيم -عليه السلام- نفسه لما طلب الإمامة لذريته والنجاة لعقبه، أجابه ربه قائلاً: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾.

وكل ما ورد بعد هذه الآية يشرح تلك المناسبة ويؤكددها:

- من مثل دعاء إبراهيم -عليه السلام- الهداية لعقبه في قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾
- ومن مثل ذم من انحراف أو رغب عن ملة إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ صُطِّفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾
- وكذا وصيته ويعقوب لبنيه أن لا يحيدوا عن الإسلام: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٣﴾ [سورة البقرة: ١٢٨-١٣٣]

ثانيهما: ما ذكره الشيخ الطاهر من أن الآيات تمهيد للأمر باستقبال الكعبة وترك ما عداها حيث قال: "وفي هذه الآية مقصد آخر وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام، لإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتباعه لأنه غير قبلتهم ليظهر لهم أن الكعبة هي أجدر بالاستقبال وأن الله استبقاها لهذه الأمة تنبيها على مزية هذا الدين" (١).

الموضع السادس:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

ومناسبة هذه الآية لسياقها من أخفى المناسبات وأغمضها في هذه السورة؛ بل هي أخفاها وأغمضها على الإطلاق، ذلك أنه مسبوق بتوجيه الله - عز وجل - للمؤمنين بالصبر على أذى أهل الكتاب وطعنهم في الإسلام، ومعقَّب بكلام عن عاقبة كاتمي العلم منهم وهم يعلمون، فما علاقة الكلام عن الحج والعمرة أو السعي بين الصفا والمروة بهذا السياق المتصل قبله وبعده؟!!

فظاهر ما تشير إليه الآية أنها حديث عن شعيرة من شعائر الحج والعمرة وهي السعي بين الصفا والمروة؛ لكن باطن الأمر يطوي مناسبة راقية تكمن في الحكمة من السعي بين الصفا والمروة وليس في التكليف به.

ذلك أنه سبحانه لما أمر المؤمنين بالصبر على أذى أهل الكتاب في الآيات السابقة أعلمهم أن ذلك الأذى ابتلاء منه لهم؛ ليبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه كما قال بعد، وأن هذا الابتلاء لا يساوي شيئاً مما سيلقون في سبيل دعوتهم؛ بل إنهم ليلبون ﴿بَشَىءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٥] والنجاة والفلاح في ذلك لمن صبر واستعان به سبحانه حتى يأتيه الفرج والبشارة: ﴿وَيَشِيرُ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥)، ثم يأتي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٥٨] ليقول لهم إن أردتم مثلاً على بشارة ونجاة وفلاح من صبر على الابتلاء، فليس عليكم جناح أن تطوفوا بين الصفا والمروة لتذكروا ما حدث لأكمكم هاجر التي ابتليت بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات فصبرت حتى أتتها البشري عيذاً تروبها ووليدها وتروي الناس إلى يومهم هذا، وتجمع حولها أنفساً تؤنسها وتذهب وحشتها وتبذل خوفها أمناً.

وقد فطن إلى تلك المناسبة وأوماً إليها من طرف خفيّ الفخر الرازي -وكان رحمه الله صاحب حسٍ مرهف بمواقع المعاني وعلاقاتها- فقال: "إنه تعالى لما قال: ﴿وَلْيَبْلُوكُمْ بَشَىءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ قال: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات" (١).

الموضع السابع:

من أول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾

﴿٢٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾ ﴿٢٨﴾

قد يخفى وجه اتصال آيات هذا المعنى بمقصود المعنى الذي وردت فيه، ذلك أنها وردت في المعنى الثاني من المعقد الثاني في سياق آيات مزجت تشريع القتال بتشريع الحج والعمرة؛ لأن أداء الحج والعمرة - كما قلت هناك - كان محفوفاً بخطر تعرض المشركين لهم والاعتداء عليهم، فجاءت هذه الآيات تخلصاً بديعاً رائقاً من الكلام في الحج إلى العودة لذكر القتال والحث عليه وإنفاق الغالي والثمين في سبيل مرضاة الله وفي سبيل رفعة هذا الدين.

فالله - سبحانه - لما ذكر أجناس الذاكرين في الحج ودرجاتهم عنده، بين كافر لا يريد إلا الدنيا: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٠] ومسلم يجمع حسنتي الدنيا والآخرة: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠١] ومنافقٍ أظهر إيماناً وقولاً حسناً وأضمر كفراً خالصاً وخصاماً ولدداً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٤] تخلص بذكر صنف من المؤمنين هم الأصفياء الذين يبذلون أنفسهم - وهي أعلى ما يملكون - في سبيل مرضاة الحق سبحانه؛ طلباً لرضوانه وحسنى جزائه، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٧] وفي هذا حث للمؤمنين على الجهاد في سبيله، وبلوغ تلك المرتبة التي رضي الله عنها وشملها برأفته ورضوانه، ثم دعوتهم الآيات للتمسك بتعاليم الإسلام مهما شقت عليهم أو كرهتها نفوسهم كتشريع القتال، ولا يكونوا كبني إسرائيل الذين بدلوا نعمة الله كفراً

وضلاً وإضلالاً، أو كالكافرين الذين رُتبت لهم الحياة الدنيا فقدموها على الآخرة وركنوا لذينتها وشهواتها، وأخذوا يسخرون من الذين آمنوا، ثم صرّحت الآيات بما أضمرت من حثٍّ على الجهاد والصبر على البأساء والضراء ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

الموضع الثامن:

(ورود آية الكرسي وما بعدها من كلام عن البعث في سياق كلام متصل عن

الإنفاق في سبيل الله)

فقد وردت آية الكرسي والكلام عن البعث بعدها في قصتي إبراهيم والذي مرَّ على القرية في سياق حديث متصل قبله وبعده عن الإنفاق، والكلام عن الإنفاق في هذا المعنى ظاهر التناسب بين التلازم قد لا يشذ عنه شيء إلا هذه الآيات من أول قوله - سبحانه -: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ.....﴾ [الآيات] [سورة البقرة: ٢٥٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُّ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

بيان ذلك أن الحق - سبحانه - لما حثَّ المؤمنين على الإنفاق في سبيله قبل أن يأتي يوم يُبعثون فيه فيرجعون إليه، ولا يستطيعون تدارك شيء مما فرطوا فيه، فلا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾، ناسب ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يبين لهم جلال الموقف بين يدي الحي القيوم الذي

لا يجرو أحدٌ على الحديث في حضرته أو الشفاعة عنده إلا بإذنه. وهو ما

تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى آعْظَمَ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣. المثال الثالث: لنبي مؤمن موقن؛ لكنه سأل المعاينة ليطمئن قلبه فيتحقق علمه "وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشبه عن العقل" (١) قال الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمِنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].



الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة مع كتاب الله - عز وجل - يكون قد بان لنا أن ردَّ الأعجاز على صدورهما في القرآن الكريم ركيزة مهمة من ركائز بناء معانيه، ومن أهم السبل الهاديات إلى فقه مقاصد سورة وإظهار خفي مناسباته.

وأن الأمر فيها لا يقتصر على رد أعجاز السور على صدورهما الذي سبق أن تحدث عنه بعض سادتنا وعلمائنا؛ بل الأعجب من ذلك والذي أثبتته البحث أنه يشمل معاهد السورة ومعانيها الجزئية.

والبحث وإن كان قد قصر التطبيق على سورة البقرة فهذا لضيق حدود البحث التي تجربنا على مراعاة عدم الإسهاب أو الإطالة؛ وليس لتفرد السورة بتلك الظاهرة عن سواها من سور القرآن، فقد تتبعتها في كثير من السور القرآنية فوجدتها شديدة الظهور في غير سورة البقرة، ولولا خوف الإطالة لنتبعت ذلك ما استطعت في كتاب الله - ﷻ -؛ ولكن عزائي أنني عازم على تتبع ذلك واستقصائه في غير هذا البحث، أدعو الله سبحانه أن ييسر لي أمري ويعينني عليه.

وفي الختام أوصي بأن نتتبع تلك الظاهرة المعنوية في كلام أفصح العرب - ﷺ -، وفي شعر من نزل فيهم القرآن ليُعلم هل كانت حاضرة في كلامهم وفي بناء معانيهم، أم هي خصوصية اختص بها كتاب الله - ﷻ - وتفرّد بها عن سائر كلام الناس.

وفي الختام كما في البدء أسأله - سبحانه - أن يتقبل مني جهدي الضعيف وبضاعتي المزجاة، وأن يغفر لي زلي وسهوي وتقصيري، وأن يستعملني لخدمة دينه وكتابه ولا يستبدلني، .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أسباب النزول للواحي تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان
الناشر: دار الإصلاح - الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ -
١٩٩٢م.
٣. آل حم غافر وفصلت دراسة في أسرار البيان، لشيخنا أ.د. محمد
محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٤. الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن أ.د. محمود توفيق
سعد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، رقم الإيداع ١٤٦٥٤/٢٠٠٣.
٥. البديع لابن المعتز طبعة دار الجيل الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/
١٩٩٠م.
٦. البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد
شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب عام
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٧. تفسير التحرير والتنوير الناشر دار سحنون - تونس، الطباعة دار
مصر للطباعة ١٩٩٧م.
٨. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير
وعلم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم، طبعة جامعة الشارقة الطبعة
الأولى ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
٩. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، مراجعة وتعليق أ.د. محمد
إبراهيم الحفناوي، خرج أحاديثه د. محمود حامد عثمان، طبعة دار
الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
١١. العزف على أنوار الذكر أ.د. محمود توفيق، طبعة دار الكتب الجامعية الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ.
١٢. علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية نظرية - تطبيقية، أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد، الطبعة الأولى لمكتبة وهبة عام ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
١٣. علم البديع عن الشيخ محمد محمد أبو موسى، للعلامة الدكتور محمود توفيق سعد، طبعة مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
١٤. في ظلال القرآن الناشر دار الشروق الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٥. مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، للإمام جلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.
١٦. مصادد النظر للإشراف على مقاصد السور للإمام البقاعي، طبعة مكتبة المعارف بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٧. مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٨. مفتاح العلوم للإمام السكاكي، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩. المواريث في اليهودية والإسلام دراسة مقارنة د. عبد الرازق قنديل، طبعة مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٢٠. نظام الأسرة في اليهودية والنصرانية والإسلام ا د. صابر أحمد طه، طبعة نهضة مصر إبريل ٢٠٠٠م.
٢١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين البقاعي، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

المحتويات

المقدمة	٨٦٨١
المبحث الأول	٨٦٨٥
تأصيل للمصطلح وبيان للفكرة	٨٦٨٥
المبحث الثاني	٨٦٩٥
رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة	٨٦٩٥
المطلب الأول:	٨٦٩٥
تحرير مقصود السورة:	٨٦٩٥
المطلب الثاني	٨٧٠٣
رد الأعجاز على صدورها في سورة البقرة	٨٧٠٣
أولاً: رد عجز السورة على مطلعها:	٨٧٠٤
ثانياً: رد أعجاز معاهد السورة ومعانيها الجزئية على صدورها:	٨٧٠٥
المعقد الأول ومعانيه الجزئية	٨٧٠٥
من الآية (١) إلى الآية (١٧٧)	٨٧٠٥
غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة:	٨٧٠٥
رد عجز المعقد على صدره:	٨٧٠٥
المعنى الأول:	٨٧٠٩
من الآية (٥) إلى الآية (٣٩)	٨٧٠٩
المعنى الثاني:	٨٧١٠
من الآية (٤٠) إلى الآية (١٠٣)	٨٧١٠
المعنى الثالث:	٨٧١١
من الآية (١٠٤) إلى الآية (١٧٧)	٨٧١١
المعقد الثاني للسورة ومعانيه الجزئية:	٨٧١٤
من الآية (١٧٧) إلى الآية (٢٨٦)	٨٧١٤
غرض هذا المعقد ودوره في بناء مقصود السورة:	٨٧١٤
رد عجز المعقد على صدره:	٨٧١٥
المعنى الأول:	٨٧٢١
من الآية (١٧٧) إلى الآية (١٨٩)	٨٧٢١
لطيفة في رد عجز هذا المعنى على صدره:	٨٧٢٦
المعنى الثاني:	٨٧٢٧
من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢٥٣)	٨٧٢٧
لطيفة في رد عجز هذا المعنى على صدره:	٨٧٢٨
القسم الأول:	٨٧٢٩
من الآية (١٩٠) إلى الآية (٢١٨)	٨٧٢٩
القسم الثاني:	٨٧٣١
من الآية (٢١٩) إلى الآية (٢٤٢)	٨٧٣١
جهات تناسب هذا القسم وانتلافه مع سابقه:	٨٧٣١
القسم الثالث:	٨٧٣٤
من الآية (٢٤٣) إلى الآية (٢٥٣)	٨٧٣٤
المعنى الثالث:	٨٧٣٦
من الآية (٢٥٤) إلى الآية (٢٨٤)	٨٧٣٦
صلة هذا المعنى بسابقه:	٨٧٣٧

لطفة في رد عجز هذا المعنى على صدره: ٨٧٣٨

المبحث الثالث ٨٧٣٩

دور رد الأعجاز على الصدور في إظهار خفي مناسبات سورة البقرة ٨٧٣٩

الموضع الأول: ٨٧٣٩

(ذكر قصة آدم عليه السلام في سياق دعوة الناس لاتباع هدى الله) ٨٧٣٩

الموضع الثاني: ٨٧٤٠

(ورود قصة البقرة في سياقها الذي وردت فيه) ٨٧٤٠

الموضع الثالث: ٨٧٤٠

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا

وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٨٧٤٠

الموضع الرابع: ٨٧٤١

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ٨٧٤١

الموضع الخامس: ٨٧٤٣

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا

قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ ٨٧٤٣

الموضع السادس: ٨٧٤٥

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ٨٧٤٥

الموضع السابع: ٨٧٤٧

من أول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...﴾

﴿٢٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ...﴾ ﴿٢٨﴾ ٨٧٤٧

الموضع الثامن: ٨٧٤٨

(ورود آية الكرسي وما بعدها من كلام عن البعث في سياق كلام متصل عن الإنفاق

في سبيل الله) ٨٧٤٨

الخاتمة ٨٧٥١

المصادر والمراجع ٨٧٥٢

المحتويات ٨٧٥٥